

## سُورَةُ هُودٍ، عَلَيْنِهِ السَّلَامُ

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا الْآيَاتِ ١٢ وَ ١٧ وَ ١١٤ فَمَدَنِيَّةٌ]

وهي مائة وثلاث وعشرون آية [نزلت بعد سورة يونس]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾

﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾: نظمت نظماً رصيناً محكماً، لا يقع فيه نقض ولا خلل، كالبناء المحكم المرصف، ويجوز أن يكون نقلاً بالهمزة، من «حكم»: بضم الكاف، إذا صار حكيماً، أي: جعلت حكيمة؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ أَلَكِنِّبِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقيل: منعت من الفساد، من قولهم: أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح؛ قال جرير [من الكامل]:

أَبْنِي حَنِيفَةً أَحْكِمُوا سَفَهَاءَكُمْ  
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضَبَا<sup>(١)</sup>  
وعن قتادة: أحكمت من الباطل، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد، من دلائل التوحيد، والأحكام، والمواعظ، والقصص، أو جعلت فصلاً، سورة سورة، وآية آية، وفرقت في التنزيل، ولم تنزل جملة واحدة، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد، أي: بين ولخص، وقرئ: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي: أحكمتها أنا ثم فصلتها، وعن عكرمة والضحاك: «ثم فصلت» أي: فرقته بين الحق والباطل.

فإن قلت: ما معنى ثم؟

قلت: ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال، كما تقول: هي محكمة أحسن الأحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل. وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل،

(١) لجرير، يقول: يا بني حنيفة «امنعوا سفهاءكم عني كما تمنع الدابة بالحكمة، فإن غضبي عليكم شديد. وفيه ضرب من التهديد، فخوفه عليهم كناية عن ذلك. وأن أغضب: مفعول أخاف، عليكم غضبي.

ينظر ديوانه (٥٠)، اللسان: حكم، الدر المصون (١/١٨٤).

وكتاب: خير مبتدأ محذوف، وأحكمت: صفة له، وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ صفة ثانية. ويجوز أن يكون خبراً بعد خير، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت، أي: من عنده إحكامها وتفصيلها، وفيه طباق حسن؛ لأنَّ المعنى: أحكمها حكيم وفصلها، أي: بينها وشرحها/ ٣٢٥ ب خير عالم بكيفيات الأمور.

﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنِ اسْتَفْغَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ يُمِئِعْكُمْ نَارًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

﴿أَلَا تَعْبُدُوا﴾: مفعول له على معنى: لثلا تعبدوا، أو تكون «أن»: مفسرة؛ لأنَّ في تفصيل الآيات معنى القول، كأنه قيل: قال: لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم ألا تعبدوا إلا الله، ﴿وَإِنِ اسْتَفْغَرُوا﴾ أي: أمركم بالتوحيد والاستغفار، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ منقطعاً عما قبله على لسان النبي ﷺ إغراء منه على اختصاص الله بالعبادة؛ ويدل عليه قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ كأنه قال: ترك عبادة غير الله، إنني لكم نذير؛ كقوله تعالى: ﴿نَضْرَبُ الرَّقَابِ﴾ والضمير في (منه): الله - عز وجل - أي: إنني لكم نذير وبشير من جهته؛ كقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أو هي صلة لنذير، أي: أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم.

فإن قلت: ما معنى ثم في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾؟

قلت: معناه استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة، أو استغفروا، والاستغفار: توبة، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها؛ كقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَغْفِرُوا﴾ فصلت: [٣٠]، ﴿يُمِئِعْكُمْ﴾: يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية، من عيشة واسعة، ونعمة متتابعة، ﴿إِلَّا أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى أن يتوفاكم؛ كقوله: ﴿فَلَنَجْزِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ النحل: [٩٧]، ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾: ويعط في الآخرة كل من كان له فضل في العمل، وزيادة فيه جزاء فضله لا ينخس منه، أو فضله في الثواب، والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات، ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾: وإن تولوا، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: هو يوم القيامة، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل، وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء، فكان قادراً على أشد ما أراد من عذابهم لا يعجزه، وقرئ: «وإن تولوا»، من ولي.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يُلْتَوْنَ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَخَفُونَ شَابَهُمْ يَلْمُهُمْ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾

﴿يَتَوَنُّ صُدُورُهُمْ﴾: يزورون عن الحق وينحرفون عنه؛ لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدرة، ومن ازور عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه، ﴿لَيْسَتْخَفُوا مِنْهُ﴾ يعني: ويريدون ليستخفوا من الله، فلا يطلع رسوله والمؤمنين على ازورارهم، ونظير إضمار يريدون - لفقود المعنى<sup>(١)</sup> إلى إضماره - الإضمار في قوله تعالى: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، معناه: فضرب فانفلق، ومعنى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَعْتُونَ ثِيَابَهُمْ﴾: ويزيدون الاستخفاء<sup>(٢)</sup> حين يستعشون ثيابهم - أيضاً - كراهة لاستماع كلام الله تعالى؛ كقول نوح - عليه السلام -: ﴿جَمَلُوا أَصْلِعُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَعْتُوا ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧]، ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يُيْرَتُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعني: أنه لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء، والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغنائهم ثيابهم، ونفاقهم غير نافق عنده، روي أنها نزلت في الأخنس بن شريق وكان يظهر لرسول الله ﷺ المحبة، وله منطلق حلو، وحسن سياق للحديث، فكان يعجب رسول الله ﷺ / ٣٢٦ أ ﷺ مجالسته ومحادثته، وهو يضمّر خلاف ما يظهر، وقيل: نزلت في المنافقين، وقرئ: «تثنوني صدورهم»، واثنوني: «افعول» من الثني، كاحلولي من الحلالة، وهو بناء مبالغة، قرئ: بالتاء والياء، وعن ابن عباس: «لثنوني»، وقرئ: «ثنون» وأصله: «تثنون» «تفعول» من الثن<sup>(٣)</sup> وهو ما هش وضعف من الكلال، يريد: مطاوعة صدورهم للثني، كما ينثني الهش من النبات، أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم، وقرئ: «تثنون»، من اثنان: «افعال» منه، ثم همز كما قيل: ابيضت، وادهامت، وقرئ: «تثنوي»، بوزن ترعوى.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ

مُبِينٍ ﴿٦﴾

فإن قلت: كيف قال: ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ بلفظ الوجوب<sup>(٤)</sup> وإنما هو تفضل؟

- (١) قوله: «لفقود المعنى» أي لتأدية المعنى (ع).
- (٢) قوله: «ويزيدون الاستخفاء» الظاهر أن هذا هو الخبر عن قوله: ومعنى ألا حين الخ. كما قال أولاً، يعني ويريدون (ع).
- (٣) قوله: «من الثن» في الصحاح «الثن» بالكسر: يبس الحشيش.
- (٤) قال محمود: «إن قلت كيف قال على الله رزقها بلفظ الوجوب... إلخ» قال أحمد: كل ما يسديه الله تعالى من رزق لبهيمة أو مكلف في الدنيا أو ثواب في الآخرة، فذلك كله فضل ولا واجب على الله تعالى، وإن ورد مثل هذه الصيغة فمحمول على أن الله - عز وجل - لما وعدهم فضله - ووعده خبر، وخبره صدق - وجب وقوع الموعود: أي يستحيل في العقل أن لا يقع. للزوم الخلف في خبر الصادق، فعبّر عن ذلك بما يعبر به عن وجوب التكليف، وبينهما هذا الفرق المذكور. هذه

قلت: هو تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم، رجع التفضل واجباً كندور العباد، والمستقر: مكانه من الأرض ومسكنه، والمستودع؛ حيث كان مودعاً قبل الاستقرار، من صلب، أو رحم، أو بيضة، ﴿كل﴾: كل واحد من الدواب، ووزقها، ومستقرها، ومستودعها في اللوح، يعني: ذكرها مكتوب فيه مبين.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَبْنَاءَكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتُمْ إِنَّكُمْ قَائِمُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيُقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾﴾

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ أي: ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض، وارتفاعه فوقها إلا الماء، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض، وقيل: وكان الماء<sup>(١)</sup> على متن الريح، والله أعلم بذلك، وكيفما كان فإله ممسك كل ذلك بقدرته، وكلما ازدادت الأجرام، كانت أحوج إليه وإلى إمساكه، ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾: متعلق بخلق، أي: خلقهن لحكمة بالغة، وهي أن يجعلها مساكن لعباده، وينعم عليهم فيها بفنون النعم، ويكلفهم الطاعات، واجتناب المعاصي، فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر وعصى عاقبه، ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ليبلوكم، يريد: ليفعل بكم ما يفعل المبلي لأحوالكم كيف تعملون.

فإن قلت: كيف جاز تعليق فعل البلوى؟

قلت: لما في الاختبار من معنى العلم؛ لأنه طريق إليه فهو ملابس له، كما تقول: انظر أيهم أحسن وجهاً واسمع أيهم أحسن صوتاً؛ لأن النظر والاستماع من طريق العلم.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿أَبْنَاءَكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأما أعمال المؤمنين والكافرين: فتفاوتها إلى حسن وقبيح؟

قلت: الذين هم أحسن عملاً هم المتقون، وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عباده، فخصهم بالذكر واطرح ذكر من وراءهم؛ تشریفاً لهم، وتنبهياً على مكانهم منه، وليكون ذلك لطفاً للسامعين، وترغيباً في حيازة فضلهم، وعن النبي ﷺ:

= قاعدة أهل الحق. وقد مر الكلام عليها عند قوله تعالى ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾، والله الموفق.

(١) قوله: «وقيل: وكان الماء» لعله «كان» بدون واو. ويمكن أن المعنى كان عرشه على الماء وكان الماء (ع).

لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَأَوْزَعُ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَأَسْرَعُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ» (٧٦٢)، قرئ: «ولئن قلت إنكم مبعوثون»، بفتح الهمزة، ووجهه أن يكون من قولهم: انت السوق/ ٣٢٦ ب عنك تشتري لنا لحماً، وأنت تشتري بمعنى علك، أي: ولئن قلت لهم: لعلكم مبعوثون، بمعنى: توقعوا بعثكم وظنوه، ولا تبتوا القول بإنكاره، لقالوا: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: باتين القول ببطلانه، ويجوز أن تضمن: «قلت» معنى: «ذكرت»، ومعنى قولهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أن السحر أمر باطل، وأن بطلانه كبطلان السحر؛ تشبيهاً له به، أو أشاروا<sup>(١)</sup> بهذا إلى القرآن؛ لأن القرآن هو الناطق بالبعث، فإذا جعلوه سحراً، فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره، وقرئ: «إن هذا إلا ساحر»، يريدون الرسول، والساحر: كاذب مبطل.

﴿وَلَيْنَ آخِرًا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّا أَنَّهُمْ مَعْدُودُونَ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

﴿الْعَذَابَ﴾: عذاب الآخرة، وقيل: عذاب يوم بدر، وعن ابن عباس: قتل جبريل المستهزئين، ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ﴾: إلى جماعة من الأوقات، ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾: ما يمنعه من النزول؛ استعجالاً له على وجه التكذيب والاستهزاء، و﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾: منصوب بخبر ليس، ويستدل به من يستجيز تقديم خبر ليس على ليس، وذلك أنه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها، كان ذلك دليلاً على جواز تقديم خبرها؛ إذ المعمول تابع للعامل، فلا يقع إلا حيث يقع العامل، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾: وأحاط بهم، ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: العذاب الذي كانوا به يستعجلون، وإنما وضع يستهزئون موضع يستعجلون؛ لأن استعجالهم كان على جهة الاستهزاء. والمعنى: ويحيق بهم إلا أنه جاء على عادة الله في أخباره.

٧٦٢ - أخرجه الطبري في تفسيره (٧/٧) رقم (١٨٠٠٣) من طريق داود بن المحبر عن عبد الواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن عبد الله بن عمر به. وأخرجه الثعلبي في تفسيره، وداود بن المحبر في كتابه «العقل»؛ كما في تخريج الكشاف للزليعي (١٤٥/٢).

قال الحافظ: أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل، والحرث في مسنده عنه، والطبري وابن مردويه من طريقه عن عبد الواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن ابن عمر، وداود ساقط. وأخرجه ابن مردويه أيضاً من طريق محمد بن أمرس عن سليمان بن عيسى عن الثوري عن كليب كذلك، وإسناده أسقط من الأول. انتهى.

(١) قوله: «أو أشاروا بهذا» لعله: وأشاروا (ع).

﴿وَلَيْنَ أَذْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۚ كَفُورًا ۝٩﴾ وَلَيْنَ أَذْقْتُهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ۝١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾

﴿الْإِنْسَانَ﴾: للجنس، ﴿رَحْمَةً﴾: نعمة من صحة وأمن وجدة، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنهُ﴾: ثم سلبنا تلك النعمة، ﴿إِنَّهُ لَيَكْفُرُ﴾: شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوقة، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر، ولا تسليم لقضائه، ولا استرجاع، ﴿كَفُورًا﴾: عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله نساءً له، ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي: المصائب التي ساءتني، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ﴾: أشر بطر، ﴿فَخُورًا﴾: على الناس بما أذاقه الله من نعمائه، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر، ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾: آمنوا، فَإِنَّ عَادَتِهِمْ إِنْ نَالْتَهُمْ رَحْمَةٌ أَنْ يَشْكُرُوا، وَإِنْ زَالَتْ عَنْهُمْ نِعْمَةٌ أَنْ يَصْبِرُوا.

﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاحِبًا بِدَىٰ صَدْرِكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ﴾

كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً لا استرشاداً؛ لأنهم لو كانوا مسترشدين، لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم، ومن اقتراحاتهم، ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ﴾: وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكاد يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فحرك الله منه وبنيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم، واستهزأهم، واقتراحهم، بقوله: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ۚ﴾ أي: لعلك تترك أن تلقيه إليهم، وتبلغه إياهم؛ مخافة ردهم له وتهاونهم به، ﴿وَصَاحِبًا بِدَىٰ صَدْرِكَ ۚ﴾: بأن تتلوه عليهم، ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾: مخافة أن يقولوا/ ١٣٢٧، ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ﴾ أي: هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة، ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۚ﴾ أي: ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحى إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه، ولا عليك ردوا أو تهاونوا أو اقترحوا، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۚ﴾: يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل، فتوكل عليه، وكل أمرك إليه، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح، غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفاههم واستهزأهم.

فإن قلت: لم عدل عن ضيق إلى ضائق؟

قلت: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدرًا، ومثله قولك: زيد سيد وجواد، تريد: السيادة والوجود الثابتين المستقرين، فإذا

أردت الحدوث قلت: سائد، وجائد، ونحوه، كانوا قوماً عامين في بعض القراءات، وقول السمهري العكلي [من الطويل]:

بِمَنْزِلَةٍ أَمَّا اللَّئِيمُ فَسَامِنٌ بِهَا وَكَرَامُ النَّاسِ بَادٍ شُحُوبُهَا<sup>(١)</sup>

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَاتَنَّا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾

(أم): منقطعة، والضمير في: ﴿أَفْتَرَنَاهُ﴾ لما يوحى إليك، تحداهم أولاً بعشر سور، ثم بسورة واحدة، كما يقول المخابر في الخط لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه، قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد، ﴿مِثْلِهِ﴾ بمعنى: أمثاله، ذهاباً إلى مماثلة كل واحدة منها له، ﴿مُفْتَرِيَاتٍ﴾: صفة لعشر سور، لما قالوا: افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك، وليس من عند الله، قاودهم<sup>(٢)</sup> على دعواهم، وأرخي معهم العنان، وقال: هبوا أني اختلقته من عند نفسي، ولم يوح إلي، وأن الأمر كما قلت، فاتنا أنتم - أيضاً - بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب: فصحاء مثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام.

فإن قلت: كيف يكون ما يأتون به مثله، وما يأتون به مفترى وهذا غير مفترى؟

قلت: معناه: مثله في حسن البيان والنظم وإن كان مفترى.

﴿فَإِنَّكُمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ

مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

فإن قلت: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله: ﴿لَكُمْ فَأَعْلَمُوا﴾ بعد قوله:

﴿قُلْ﴾؟

قلت: معناه: فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين؛ لأن رسول الله ﷺ والمؤمنين كانوا يتحدثونهم، وقد قال في موضع آخر: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَأَعْلَمْ﴾ [القصص: ٥٠]، ويجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله ﷺ؛ كقوله [الطويل]:

(١) للعكلي. والشحوب تغير اللون. وأنشده أبو زيد شاهداً على أن الشحوب في لغة بني كلاب الهزال، وهو أنسب بالمقابلة لقوله بمنزلة مجدبة صفتها أنها. أما اللئيم الذي همه بطنه، فهو سامن فيها لكثرة أكله. وأما كرام الناس فهم متغيرون فيها مهازيل، لأنهم يطعمون ولا يطعمون. و«فاعل» من سمن شاذ، وقياسه «فعليل».

ينظر: البحر المحيط (٢٠٧/٥)، روح المعاني (١٩/١٢)، الدر المصون (٨٣/٤).

(٢) قوله: «قاودهم» ضمن معنى واقفهم وسائرهم (ع).

فَإِنْ شِئْتُمْ حَرَّمْتُ النَّسَاءَ سِوَاكُمْ ..... (١)

وجه آخر: وهو أن يكون الخطاب للمشركين، والضمير في: (لم يستجيبوا): لمن استطعتم، يعني: فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه، وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ أي: أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله، من نظم معجز للخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اعْلَمُوا عِنْدَ ذَلِكَ، ﴿وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا﴾: الله وحده، وأن توحيدَه واجب والإشراك به ظلم عظيم، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ / ٣٢٧ب: مبايعون بالإسلام بعد هذه الحجة القاطعة، وهذا وجه حسن مطرد، ومن جعل الخطاب للمسلمين، فمعناه: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه، وازدادوا يقيناً وثبات قدم على أنه منزل من عند الله وعلى التوحيد، ومعنى: (فهل أنتم مسلمون): فهل أنتم مخلصون؟

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾  
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿نُوفِّ إِلَيْهِمْ﴾: نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية، كاملة، من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق، وقيل: هم أهل الرياء، يقال للقراء منهم: أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل ذلك، ولمن وصل الرحم وتصدق: فعلت حتى يقال، فقيل: ولمن قاتل فقتل: قاتلت حتى يقال فلان جريء، فقد قيل: وعن أنس بن مالك: هم اليهود والنصارى، إن أعطوا سائلاً أو وصلوا رحماً، عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة في الرزق وصحة في البدن، وقيل: هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ فأسهم لهم في الغنائم، وقرئ: «يوف»، بالياء على أن الفعل لله - عز وجل - «وتوف إليهم أعمالهم» بالتاء، على البناء للمفعول، وفي قراءة الحسن: «نوفي»، بالتحفيف، وإثبات الياء؛ لأن الشرط وقع ماضياً؛ كقوله [من البسيط]:

يَقُولُ: لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرِيمٌ<sup>(٢)</sup> .....

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾: وحبط في الآخرة ما صنعوه، أو صنعهم، يعني: لم يكن له ثواب؛ لأنهم لم يريدوا به الآخرة؛ إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفى إليهم ما أرادوا،

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

﴿وَيَطَّلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: كان عملهم في نفسه باطلاً؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له، وقرئ: «ويطل» على الفعل، وعن عاصم: «وباطلاً» بالنصب، وفيه وجهان: أن تكون ما إبهامية، ويتنصب بيعملون، ومعناه: وباطلاً، أي: باطل كانوا يعملون، وأن تكون بمعنى المصدر على: وبطل بطلاناً ما كانوا يعملون.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتَنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَرُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَبٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتَنَةٍ﴾: معناه: أمن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بينة<sup>(١)</sup>، أي: لا يعقبونهم في المنزلة ولا يقاربونهم، يريد أن بين الفريقين تفاوتاً بعيداً، وتبايناً بيناً، وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره، كان على بينة، ﴿مِن رَّبِّهِ﴾ أي: على برهان من الله، وبيان أن دين الإسلام حق وهو دليل العقل، ﴿وَيَتْلُوهُ﴾: ويتبع ذلك البرهان، ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: شاهد يشهد بصحته، وهو القرآن، (منه): من الله، أو شاهد من القرآن، فقد تقدم ذكره آنفاً، ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾: ومن قبل القرآن، ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾: وهو التوراة، أي: ويتلو ذلك البرهان - أيضاً - من قبل القرآن كتاب موسى، وقرئ: «كتاب موسى» بالنصب، ومعناه: كان على بينة من ربه، وهو الدليل على أن القرآن / ٣٢٨ حق، (ويتلوه): وقرأ القرآن، (شاهد منه): شاهد ممن كان على بينة؛ كقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ يَتَنَةٍ﴾ [الأحقاف: ١٠]، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ﴾: ويتلو من قبل القرآن والتوراة، ﴿إِمَامًا﴾: كتاباً مؤتمناً به في الدين قدوة فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يعني من كان على بينة، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: يؤمنون بالقرآن، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ يعني: أهل مكة، ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله ﷺ ﴿فَالْتَأَرُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَبٍ﴾، وقرئ: «مربة»، بالضم، وهما الشك، ﴿مِنْهُ﴾: من القرآن أو من الموعد.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا

(١) قوله: «فمن كان على بينة» عبارة النسفي: كمن كان. وعبارة الخازن: أفمن كان على بينة من ربه، أي كمن كان يريد... إلخ (ع).

كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

﴿يَعْرُضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾: يحبسون في الموقف، وتعرض أعمالهم، ويشهد عليهم، ﴿الْأَشْهَادُ﴾: من الملائكة والنبیین بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولداً وشريكاً، ويقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾: فواخزيها، ووافضيحناه، والأشهاد: جمع شاهد أو شهيد، كأصحاب أو أشراف، ﴿وَيَعْمُونَهَا عَمًّا﴾: يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة، أو ييغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد، وهم الثانية؛ لتأكيد كفرهم بالآخرة، واختصاصهم به، ﴿وَأُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما كانوا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم، وهو من كلام الأشهاد، ﴿يُضْعِفُ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾، وقرئ: «يضعف»، ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ أراد أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكرهاتهم له. كأنهم لا يستطيعون السمع<sup>(١)</sup>، ولعل بعض المجبرة<sup>(٢)</sup> يتوثب إذا عثر عليه فيوع<sup>(٣)</sup> به على أهل العدل، كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان: هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه، وهذا مما يمجه سمعي، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ﴾: أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله، وولايته ليست بشيء، فما كان لهم في الحقيقة من

١) قال محمود: «أراد أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكرهاتهم له كأنهم... الخ» قال أحمد: أهل الحق وإن نفوا تأثير استطاعة العبد وخلصوا الخلق لقدرة الخالق عز وجل، لا ينفون استطاعة العبد نفسها ولا ما يجده من نفسه من الفرق حالة الحركات القسرية والاختيارية، وإنما الذي ينفي الاستطاعة جملة هم المجبرة حقيقة لا أهل السنة. والحق مع الزمخشري في هذا الموضوع إلا في غفلته حيث يقول: فيوع بها على أهل العدل، يعني الآية المذكورة. وهذه سقطه عظيمة، وهب أن المجبر غلط في الاستدلال بالآية على معتقده، فكيف يستجيز أن يطلق على إيراد الآية وعوة، وإنما تلا كتاب الله تعالى غير أن خطأه في تصحيح معتقده الباطل به. وما الزمخشري إلا يتسامح كثيراً فيما يجب من الآداب للكتاب العزيز، وإنما يليق التسامح إذا كان يفسر شعر امرئ القيس أو الحارث بن حلزة. وأما أدب القرآن فيضيق عن أسهل من ذلك، والله الموفق.

٢) قوله: «ولعل بعض المجبرة» إن كان مراده بهم أهل السنة كعادته، فهم لا يسلبون عن العبد الاستطاعة في الفعل، بل يثبتون له الكسب والاستطاعة مع الفعل، وإن كان مراده القائلين بالجبر المحض وأن العبد كالريشة المعلقة في الهواء فلا ضير. ونقل الخازن عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال: أخبر الله تعالى أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فإنه قال: ما كانوا يستطيعون السمع، وهو طاعته. وما كانوا يبصرون. وأما في الآخرة فإنه قال ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿خَيْرٌ مِّنْكُمْ﴾.

٣) قوله: «فيوع به» في الصحاح: الوعوة صوت الذئب.

أولياء، ثم بين نفي كونهم أولياء بقوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ﴾ فكيف يصلحون للولاية؟ وقوله: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾: اعتراض بوعيد، ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله، فكان خسرانهم في تجارتهم ما لا خسران أعظم منه، وهو أنهم خسروا أنفسهم، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾: وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو: ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: من الآلهة وشفاعتها، ﴿لَا جَرَمَ﴾: فسر في مكان آخر، ﴿هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾: لا ترى أحداً أبين خسراً منهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: واطمأنوا إليه، وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المظلمة؛ ومنه قولهم للشيء: الدنيء/ ٣٢٨ ب الخبث؛ قال [من الخفيف]:

يَنْفَعُ الطَّيِّبُ الْقَلِيلُ مِنَ الرَّزِّ قِ وَلَا يَنْفَعُ الْكَثِيرُ الْخَبِيثُ<sup>(١)</sup>  
وقيل: التاء فيه بدل من التاء.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع<sup>(٢)</sup>، وهو من اللف والطباق، وفيه معنيان: أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين، كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والحناب، وأن يشبهه بالذي جمع بين العمى والصمم، أو الذي جمع بين البصر والسمع<sup>(٣)</sup>، على أن تكون الواو في: (والأصم)، وفي: (والسميع): لعطف الصفة على الصفة؛ كقوله [من السريع]:

الصَّابِحِ قَالَعَانِمِ قَالَايِبِ<sup>(٤)</sup> .....

(١) تقدم.

(٢) قال محمود: «شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع إلى قوله أن تكون الواو... إلخ» قال أحمد: بخلافها على الوجه الأول، فإنها لعطف الموصوف على الموصوف. وأما تنظيره الآية بتشبيه امرئ القيس في كونه شبه تشبيهين اثنين ففيه نظر. فإن امرأ القيس شبه كل واحد من الرطب واليابس تشبيهاً واحداً، والآية على التفسير الأول شبهت كل واحد من الكافر والمؤمن تشبيهين، وإنما ينظر بيت امرئ القيس على الوجه الثاني، فإن مقتضاه أن كل واحد منهما شبه تشبيهاً واحداً، ولكن في صفتين متعدتين، والأمر في ذلك قريب، والله أعلم.

(٣) قوله: «أو الذي جمع بين البصر والسمع» لعله: والذي (ع).

(٤) تقدم.

﴿هَلْ يَسْتَوِينَ﴾ يعني: الفريقين، ﴿مثلاً﴾: تشبيهاً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآلِيمِ ﴿٢٦﴾﴾

أي: أرسلنا نوحاً بأني لكم نذير، ومعناه: أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام، وهو قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: بالكسر، فلما اتصل به الجاز، فتح كما فتح في: (كان) والمعنى: عسى الكسر، وهو قولك: إن زيداً كالأسد، وقرئ: بالكسر على إرادة القول، ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾: بدل من: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: أرسلناه بالأمر لتعبدوا، ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾، أو تكون: «أن»: مفسرة، متعلقة بأرسلنا أو بنذير، وصف اليوم بالآليم من الإسناد المجازي لوقوع الأليم فيه.

فإن قلت: فإذا وصف به العذاب؟

قلت: مجازي مثله؛ لأن الأليم في الحقيقة هو المعذب، ونظيرهما قولك: نهارك صائم، وجدّ جدّه.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا زَرْنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا زَرْنَاكَ أَتَيْتَكَ إِلَّا أَتَيْنَكَ هُمُ الْأَرَادُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَنظُرُكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿الْمَلَأُ﴾: الأشراف من قولهم: فلان مليء بكذا، إذا كان مطيقاً له، وقد ملؤوا بالأمر؛ لأنهم ملؤوا بكفريات الأمور، واضطلعوا بها وتبديروها، أو لأنهم يتمالؤون، أي: يتظاهرون ويتساندون، أو لأنهم يملئون القلوب هيبة والمجالس أبهة<sup>(١)</sup>، أو لأنهم ملأوا بالأحلام والآراء الصائبة، ﴿مَا زَرْنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾: تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة<sup>(٢)</sup>، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر، لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ وموازل لهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم؟ ألا ترى إلى قولهم: وما نرى لكم علينا من فضل، أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً لا بشراً، والأراذل جمع الأراذل؛

(١) قوله: «والمجالس أبهة» كسكرة: عظمة (ع).

(٢) قال محمود: «هو تعريض بأنهم كانوا أحق منه بالنبوة... إلخ» قال أحمد: ويحتمل في الوجهين أن يكون المراد أول الرأي. ولكنه ترك الهمز استقلالاً؛ إلا أن يكون القارئ بها ياء ليس من مذهبه تسهيل الهمز، والمعنيان متقاربان، وقد زعم هؤلاء أن يحجوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين، أحدهما: أن المتبعين أراذل ليسوا قدوه ولا أسوة. والثاني: أنهم مع ذلك لم يترووا في اتباعه. ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية. وغرض هؤلاء أن لا يقوم عليهم حجة بأن منهم من صدقه وآمن به، والله أعلم.

كقوله: ﴿أَكْثَرُ مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] «أحسنكم أخلاقاً»، وقرئ: «بادي الرأي»، بالهمز وغير الهمز، بمعنى: اتبعوك أول الرأي أو ظاهر الرأي، وانتصابه على الظرف، أصله: وقت حدوث أول رأيهم، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم، فحذف ذلك، وأقيم المضاف إليه مقامه، أرادوا: أن اتباعهم لك إنما هو شيء عن لهم بديهة من غير روية ونظر؛ وإنما استردلوا المؤمنين لفقرهم، وتأخرهم في الأسباب الدنيوية؛ لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك، وبينون عليه/ ٣٢٩ إكرامهم وإهانتهم، ولقد زل عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعدة، ولا يرفعه بل يضعه، فضلاً أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوّة والتأهيل لها، على أن الأنبياء - عليهم السلام - بعثوا مرغبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا، مزهدين فيها، مصغرين لشأنها وشأن من أدخل إليها، فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله، والتشرف بما هو ضعة عند الله، ﴿مِنْ فَضْلٍ﴾: من زيادة شرف علينا تؤهلكم للنبوّة، ﴿بَلْ نُنَفِّسُكُمْ كَذِبَاتٍ﴾: فيما تدعونه

﴿قَالَ يَفْقَهُوْا آرَاءَ يَتِّمُّ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتِّنٍ مِّن رَّبِّيٰ وَءَالَتِنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَكُلُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطَارِدُوا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا جَاهِلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَفْقَهُوْا مَن يَضُرُّنِي مَن اللَّهُ إِنْ ظَلَمْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿آرَاءَ يَتِّمُّ﴾: أخبروني، ﴿إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتِّنٍ﴾: على برهان، ﴿مِن رَّبِّي﴾: وشاهد منه يشهد بصحة دعواي، ﴿وَءَالَتِنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِي﴾: بإيتاء البينة على أن البينة في نفسها هي الرحمة، ويجوز أن يريد بالبينة: المعجزة، وبالرحمة: النبوّة.

فإن قلت: فقوله: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾: ظاهر على الوجه الأول، فما وجهه على الوجه الثاني؟ وحقه أن يقال فعميتا؟

قلت: الوجه: أن يقدر فعميت بعد البينة، وأن يكون حذفه للاقتصار على ذكره مرة؛ ومعنى «عميت»: خفيت، وقرئ: «فعميت» بمعنى: أخفيت، وفي قراءة أبي: فعمماها عليكم.

فإن قلت: فما حقيقته؟

قلت: حقيقته: أن الحججة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء؛ لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره، فمعنى «فعميت عليكم البينة» فلم تهديكم، كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد.

فإن قلت: فما معنى قراءة أبي؟

قلت: المعنى: أنهم صمموا على الإعراض عنها فخلاهم الله<sup>(١)</sup> وتصميمهم، فجعلت تلك التخلية تعمية منه؛ والدليل عليه قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ يعني: أنكروهم على قبولها ونفسركم على الاهتداء بها، وأنتم تكرهونها ولا تختارونها، ولا إكراه في الدين؟ وقد جيء بضميري المفعولين متصلين جميعاً، ويجوز أن يكون الثاني منفصلاً؛ كقولك: أنزلتمكم إياها، ونحوه: (فسيكفيهم الله)، ويجوز: فسيكفيك إياهم، وحكي عن أبي عمرو إسكان الميم، ووجهه أن الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة، فظنها الراوي سكوناً، والإسكان الصريح: لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين؛ لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر، والضمير في قوله: ﴿لَا أَشْكُكُمْ عَلَيْهِ﴾: راجع إلى قوله لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ لَا تَقْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ٢٥، ٢٦]، وقرئ: «ما أنا بطارد الذين آمنوا»، بالتثنية على الأصل.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أَنْتُمْ مُلْقَوُا رَبِّهِمْ﴾؟

قلت: معناه: أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم، أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم، أو على خلال ذلك مما تقرفونهم به<sup>(٢)</sup> من بناء إيمانهم على بادئ الرأي من غير نظر وتفكير، / ٣٢٩ وما عليّ أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون؛ ونحوه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ...﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]، أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة، ﴿تَجْهَلُونَ﴾: تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل؛ من قوله [من الوافر]:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا.....<sup>(٣)</sup>

(١) قوله: «فخلاهم الله» لم يفسره بمعنى أخفاها، لأن الله لا يفعل الشر عند المعتزلة، وعند أهل السنة يفعل كل ممكن (ع).

(٢) قوله: «ذلك مما تقرفونهم به» أي ترمونهم وتعيونهم. أفاده الصحاح (ع).

(٣) ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا  
لعمرو بن كلثوم من معلقته، و«ألا» استفاحية تفيد التوكيد - و«لا» ناهية. والنون لتوكيد النهي.  
أي: لا يسفهن أحد علينا ويبدأنا بالشر، ونجهل: نصب بأن مضرة بعد فاء السببية لأنه بعد النهي. =

أو تجهلون بلقاء ربكم، أو تجهلون أنهم خير منكم، ﴿مَنْ يَضُرُّهُ مِنَ اللَّهِ﴾: من ينعني من انتقامه، ﴿إِنْ كَرِهْتُمْ﴾: وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به، أنفة من أن يكونوا معهم على سواء، ﴿أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾: معطوف على: ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، أي: لا أقول عندي خزائن الله، ولا أقول: أنا أعلم الغيب، ومعناه: لا أقول لكم: عندي خزائن الله فأدعي فضلاً عليكم في الغنى، حتى تجحدوا فضلي بقولكم: ﴿وَمَا زَكَا لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، ولا أدعي علم الغيب حتى تنسبوني إلى الكذب والافتراء، أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضماير قلوبهم، ﴿وَلَا أَقُولُ لِي مَلَكٌ﴾: حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلنا، ولا أحكم على من استرذلتهم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيراً في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه، كما تقولون؛ مساعدة لكم ونزولاً على هواكم، ﴿إِنِّي إِذَا لَأَيُّ الْفَالِغِينَ﴾: إن قلت شيئاً من ذلك، والازدراء: افتعال من زرى عليه إذا عابه، وأزرى به: قصر به، يقال: ازدرته عينه، واقتحمته عينه.

﴿قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا يَمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣٢)

﴿جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾: معناه: أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته؛ كقولك: جاد فلان فأكثر وأطاب، ﴿فَأَيْنَا يَمَا تَعْدُنَا﴾: من العذاب المعجل.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٣٣) ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَا قُلُوبَ إِنْ أَفَرَيْتَهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْرِمُونَ﴾ (٣٥)

﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: ليس الإتيان بالعذاب إليّ؛ إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه، ﴿إِنْ شَاءَ﴾ يعني: إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم، وقرأ ابن عباس - رضي الله عنه -: «فأكثرت جدلنا».

فإن قلت: ما وجه ترادف هذين الشرطين؟<sup>(١)</sup>

= وسمي جزاء الجهل جهلاً مشاكلة، أي: فنجازيه فوق فعله بنا، أو فوق جهل كل جاهل وزيادة عليه.

البيت من معلقته المشهورة ينظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (١٠٢)، والتبيان في علم المعاني والسريع والبيان (٣٤٨)، والبحر (١/١٨٦)، القرطبي (١/١٤٥) والدر المصون (١/١٢٦).

(١) قال محمود: «إن قلت: ما وجه ترادف هذين الشرطين... إلخ» قال أحمد: ونظير هذه الآية من مسائل الفقهاء قول القائل: أنت طالق إن شربت إن أكلت. وهي المترجمة بمسألة اعتراض الشرط على الشرط. والمنقول عن الشافعية أنها إن شربت ثم أكلت لم يحنث. وإن أكلت ثم شربت =

قلت: قوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾: جزاؤه ما دلّ عليه قوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكَ نَصْحِي﴾، وهذا الدال في حكم ما دلّ عليه، فوصل بشرط كما وصل الجزاء بالشرط في قولك: إن أحسنت إليّ أحسنت إليك إن أمكنتني.

فإن قلت: فما معنى قوله: <sup>(١)</sup> ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾؟

قلت: إذا عرف الله من الكافر الإصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه، سمي ذلك إغواء وإضلالاً، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوي فلفظ به: سمي إرشاداً وهداية، وقيل: ﴿أَرِ يُغْوِيَكُمْ﴾: أن يهلككم من غوى الفصيل غوى، إذا بشم فهلك <sup>(٢)</sup>، ومعناه: أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح الله، ومواعظه، وسائر أطافه، كيف ينفعكم نصحي؟ ﴿فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾: وإجرامي بلفظ المصدر/ ٣٣٠ والجمع؛ كقوله: والله يعلم أسرارهم وأسرارهم؛ ونحو: جرم وأجرام، قفل وأقفال؛ وينصر الجمع أن فسره الأونون بأنامي، والمعنى: إن صح وثبت أنني افتريته، فعليّ عقوبة إجرامي، أي: افترائي، وكان حقي حينئذ أن تعرضوا عني وتألّبوا عليّ <sup>(٣)</sup>، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ﴾ يعني: ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه، ومعنى: ﴿مِمَّا تُخْشَرُونَ﴾؛ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا نَبْتَيْسَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾  
﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٣٧﴾

﴿لَنْ يُؤْمِنَ﴾: إقناط من إيمانهم، وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع، ﴿إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾: إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها، ﴿فَلَا نَبْتَيْسَ﴾: فلا تحزن حزن بانس مستكين؛ قال [من البسيط]:

مَا يَنْقَسِمُ اللَّهُ فَاقْبَلْ غَيْرَ مُنْبَتَيْسٍ مِنْهُ وَأَقْعِدْ كَرِيماً نَاعِمَ النَّبَالِ <sup>(٤)</sup>

= حنث. وهذا الفرق مناه على جعل الجزاء للشرط الآخر، أي للذي يليه، ثم جعلهما معاً جزاء للشرط المتوسط، ولذلك سر في العربية لا تطول بذكره وعليه أعرب الزمخشري هذه الآية كما رأيت، والله أعلم.

(١) قوله: «فإن قلت فما معنى... إلخ» السؤال وجوابه مبني على مذهب المعتزلة: أن الله لا يخلق الشر. أما على مذهب أهل السنة فالإغواء على ظاهره: خلق الغي - أي الضلال - في القلب (ع).

(٢) قوله: «إذا بشم فهلك» في الصحاح «البشم» التخيم. يقال: بشمت من الطعام - بالكسر. وبشم الفصيل من كثرة شرب اللبن (ع).

(٣) قوله: «وتألّبوا عليّ» أي تجمعوا. أفاده الصحاح (ع).

(٤) لحسان، يقال: ابتأس إذا حزن من كثرة وقوع البأس والمكاره به. والبال القلب أو الشأن. يقول: =

والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك، وإيذائك، ومعاداتك، فقد حان وقت الانتقام لك منهم، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: في موضع الحال، بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته: ملتبساً بأعيننا، كأن الله معه أعيناً تكلؤه أن يزيغ في صنعته عن الصواب، وألاً يحول بينه<sup>(١)</sup> وبين عمله أحد من أعدائه، و﴿وَوَحِينَا﴾: وأنا نوحى إليك ولنهمك كيف تصنع، عن ابن عباس - رضي الله عنه -: «لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جوجو الطائر»، ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: ولا تدعني في شأن قومك، واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك، ﴿إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ﴾: إنهم محكوم عليهم بالإغراق، وقد وجب ذلك، وقضي به القضاء، وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه؛ كقوله: ﴿يَكِيدُ لَهُمُ الْاِرْءَافُ مِنْ هَذَا يُنْزِلُ اللَّهُ فَيَأْتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ الَّذِي هُمْ يَمُرُّونَ﴾ [هود: ٧٦].

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾<sup>(٢٨)</sup> ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾<sup>(٢٩)</sup>

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾: حكاية حال ماضية، ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾: ومن عمله السفينة، وكان يعملها في برية بهماء<sup>(٢)</sup> في أبعاد موضع من الماء، وفي وقت عز الماء فيه عزة شديدة، فكانوا يتضاحكون ويقولون له: يا نوح، صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً، ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ يعني: في المستقبل، ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾: منا الساعة، أي: نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة، وقيل: إن تستجهلوننا فيما نصنع، فإننا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه، فأنتم أولى بالاستجهال منا، أو: إن تستجهلوننا، فإننا نستجهلكم في استجهالكم؛ لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق، وروي أن نوحاً - عليه السلام - اتخذ السفينة في سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب الساج،

= ما يقسمه الله لك من نعمة أو نقمة فاقبله حال كونك غير متحزن منه، أي مما قسمه الله لك. واقعد كريماً غير مهان طيب الحال والشأن، أو مستريح القلب من نصب الدنيا. وروي: واقعد بقطع الهمزة، من أقعد المتعدي، فكريماً حال على الأول، ومفعول على الثاني، وفيه تجريد.

ينظر: ديوانه ص ١٤٧، ولسان العرب (بأس)، والتنبية والإيضاح ٢/٢٦١، وتاج العروس (بأس)، وأساس البلاغة (بأس)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ١/٣٢٨، والمختص ١٢/٣١٧.

(١) قوله: «وأن لا يحول بينه» لعله: وأن يحول (ع).  
(٢) قوله: «برية بهماء» أي لا يهتدي فيها الطريق. ويقال: الممر أبهم، وكذا الرجل الشجاع أبهم، كذا في الصحاح.

وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل: الوحوش، والسباع، والهوام، وفي البطن الأوسط: الدواب/ ٣٣٠ب، والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم - عليه السلام - وجعله معترضاً بين الرجال والنساء، وعن الحسن: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة، وقيل: إن الحوريين قالوا لعيسى - عليه السلام -: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كتيب من تراب، فأخذ كفاً من ذلك التراب، فقال: «أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب بن حام، قال: فضرب الكتيب<sup>(١)</sup> بعصاه فقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب، فقال له عيسى - عليه السلام -: هكذا أهلكت؟ قال: لا، مت وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثمت شبت، قال: حدثنا عن سفينة نوح، قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، طبقة للدواب والوحوش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير، ثم قال له: عد بإذن الله كما كنت، فعاد تراباً، ﴿مَنْ بَأْيُوهُ﴾: في محل النصب بتعلمون، أي: فسوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يخزيه، ويعني به إياهم، ويريد بالعذب: عذاب الدنيا، وهو الغرق، ﴿وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ﴾: حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكاك له عنه، ﴿عَذَابٌ مُّيقِنٌ﴾: وهو عذاب الآخرة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿وَقَالَ أَزْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَحْرَبَهَا وَمُرْسَهًا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٤٢﴾

﴿حَتَّىٰ﴾: هي التي يبدأ بعدها الكلام، دخلت على الجملة من الشرط والجزاء.

فإن قلت: وقعت غاية لماذا؟

قلت: لقوله: «ويصنع الفلك»، أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد.

فإن قلت: فإذا اتصلت: «حتى» يصنع، فما تصنع بما بينهما من الكلام؟

قلت: هو حال من يصنع، كأنه قال: يصنعها والحال أنه كلما مرّ عليه ملاً من قومه سخرو منه.

فإن قلت: فما جواب كلما؟

قلت: أنت بين أمرين: إما أن تجعل: (سخروا): جواباً، و(قال): استثناءً، على

(١) قوله: «قال فضرب الكتيب» أي راوي هذه القصة، لكنه غير معلوم (ع).

تقدير سؤال سائل، أو تجعل: (سخرُوا)، بدلاً من (مَرَّ)، أو صفة: (لملاً)، و(قال):  
 جواباً، ﴿وَأَهْلَكَ﴾: عطف على اثنين، وكذلك: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾: يعني: واحمل أهلِكَ  
 والمؤمنين من غيرهم، واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار، وما سبق  
 عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر، لا لتقديره عليه<sup>(١)</sup> وإرادته به - تعالى الله عنه  
 ذلك - قال الضحاك: أراد ابنه وامرأته، ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كَانُوا  
 ثَمَانِيَةَ: نُوحٌ وَأَهْلُهُ، وَبَنُوهُ الثَّلَاثَةُ، وَنِسَاؤُهُمْ» (٧٦٣)، وعن محمد بن إسحاق: كانوا  
 عشرة: خمسة رجال وخمس نسوة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وأولاد  
 نوح: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم، فالجميع ثمانية وسبعون: نصفهم رجال، ونصفهم  
 نساء، ويجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين، فالكلام الواحد: أن يتصل: (بسم الله):  
 باركبوا حالاً من الواو، بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله / ٣٣١، أو قائلين: بسم الله وقت  
 إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنها مصدران كالإجراء  
 والإرساء، حذف منهما الوقت المضاف؛ كقولهم: خفوق النجم، ومقدم الحاج، ويجوز  
 أن يراد مكاناً الإجراء والإرساء، وانتصابهما بما في: (بسم الله): من معنى الفعل، أو بما  
 فيه من إرادة القول، والكلامان: أن يكون: ﴿بِسْمِ اللَّهِ يَجْرِيهَا وَمُرْسَهَا﴾: جملة من مبتدأ  
 وخبر مقتضبة، أي: بسم الله إجراؤها وإرساؤها، يروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال:  
 بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله فرست، ويجوز أن يقحم الاسم<sup>(٢)</sup>؛  
 كقوله [من الطويل]:

... ثُمَّ أَسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَْا ..... (٣)

٧٦٣ - أخرجه قال الزيلعي في تخريج الكشاف: (١٤٦/٢): غريب. أ.هـ وقال ابن حجر: لم أره  
 مرفوعاً. وذكره الطبري بإسناد عن قتادة قال: ذكر لنا أن لم يتم في السفينة إلا نوح وامرأته وبنوه  
 الثلاثة ونساؤهم. فجمعهم ثمانية. أ.هـ أخرجه الطبري (٤٢/٧) رقم (١٨١٨٩) موقوفاً على قتادة.  
 قال الحافظ: لم أره مرفوعاً. وذكره الطبري بإسناد عن قتادة قال: ذكر لنا أن لم يتم في السفينة إلا  
 نوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم؛ فجمعهم ثمانية. انتهى.

- (١) قوله: «يختار الكفر لا لتقديره عليه» هذا على مذهب المعتزلة من عدم سبق القضاء والقدر على الشر  
 وعدم إرادته، ولكن مذهب أهل السنة أن كل ممكن مسبق بالقضاء والقدر والإرادة ولو شراً (ع).  
 (٢) قال محمود: «ويجوز أن يقحم الاسم... إلخ» قال أحمد: نفور من اعتقاد أن الاسم هو المسمى،  
 ولو اعتقد ذلك لما جعله مقحماً، والله أعلم.  
 (٣) تمنى ابتغاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر؟  
 فإن حان يوماً أن يموت أبوكما فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر  
 وقولا: هو المرء الذي لا صديقه أهان ولا خان الأمين ولا غدر =

ويراد: بالله إجراؤها وإرساؤها، أي: بقدرته وأمره، وقرئ: ﴿مجراها ومرساها﴾: بفتح الميم، من جرى ورسى، إما مصدرين، أو وقتين، أو مكانين، وقرأ مجاهد: «مجريها ومرسيها»، بلفظ اسم الفاعل، مجروري المحل، صفتين لله.

فإن قلت: ما معنى قولك: جملة مقتضبة؟

قلت: معناه: أن نوحاً - عليه السلام - أمرهم بالركوب، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله، أو بأمره وقدرته، ويحتمل أن تكون غير مقتضبة بأن تكون في موضع الحال؛ كقوله [من الوافر]:

وَجَاءُواَنَا بِهِمْ سَكَّرَ عَلَيْنَا ..... (١)

= إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر للبيد بن ربيعة العامري، يوصي ابنتيه أسماء ويسرة. وتمنى: ماض، أو مضارع حذف منه إحدى التائين، والاستفهام إنكاري وهو كناية عن تحتم الموت. ويوماً: ظرف لكان. والمراد به: مطلق الزمن. وأن يموت: فاعل. وخمش وجهه خمشاً: جرحه بأظفاره، أي: لا تبالغا في الجزع حتى تفعل ذلك، ووقف على شعر منصوب بصورة المرفوع على لغة، نهاهما عن الجزع وأمرهما بعد مناقبه. وصديقه: مفعول مقدم، وإلى الحول: متعلق بقولا، ولفظ «اسم» مقحم بين ثم ولفظ السلام، لأنه أراد تحيتهما بهذا اللفظ بخصوصه وإن أفاد غيره معناه. وقيل: أقحمه إشارة إلى أنه لا أمان لهما بعد موته، وفي «ثم» إيحاء إلى أنه لم يسلم الآن، وإنما ذلك بعد الحول، والمراد أنه لا يخطر بالهما ولا يحزننا عليه بعد ذلك، فغير عنه بسلام الموادة الذي يلزمه الافتراق، والافتراق يلزمه عدم التذكر عادة. ويحتمل أن المراد الدلالة على أن الوصية قد تمت، ثم قال: ومن يبك مصابه حولاً كاملاً فقد أبلغ في العذر، كأنه يعتذر عن سكوته بأنه أدى ما عليه، أي: وأنتم كذلك. ينظر ديوانه ص ٢١٤، الأغاني ٤٠/١٣، خزانة الأدب ٣٣٧/٤، ٣٤٠، ٣٤٢، الخصائص ٣/٢٩، لسان العرب (غدر)، شرح المفصل لابن يعيش ١٤/٣، العقد الفريد ٧٨/٢، ٥٧/٣، بغية الوعاة ٤٢٩/١، الدرر ١٥/٥، المقاصد النحوية ٣٧٥/٣، المنصف ١٣٥/٣، الأشباه والنظائر ٧/٩٦، شرح الأشموني ٣٠٧/٢، شرح عمدة الحفاظ ص ٥٠٧، والمقرب ٢١٣/١، همع الهوامع ٤٩/٢، ١٥٨، بلا نسبة في أمالي الزجاجي ص ٦٣، شرح ديوان الحماسة ٨٩٤/٢، تأويل المشكل ٢٥٥، مجاز القرآن ١٦/١، الطبري ٨٠/١، النكت والعيون ٤٧/١، الدرر ٥٢/١، فتح القدير ٤٠٩/٢.

(١) وَجَاءُواَنَا بِهِمْ سَكَّرَ عَلَيْنَا فأجلى القوم والسكران صاحي

السكر والسكر: كالبعد والبعد، و«بهم سكر» جملة حالية. و«علينا» متعلق بسكر: أي جاءنا القوم غضاباً علينا، فأنكشوا عن مكان الحرب ومضوا عنه. والحال أن السكران منهم مفلق من سكره. ويروى «فأجلى اليوم» أي زال ومضى، أو انكشفت ظلمة الحرب في ذلك اليوم: أي لم يلبثوا إلا هو والحال أن الذي كان سكران صاح من سكره، لعلمه أنه ليس أهلاً لذلك، فأجلى هنا لازم. وهو لعتي بن مالك العقيلي في تهذيب إصلاح المنطق ص ٢٣٣، وبلا نسبة في لسان العرب (سكر)، وديوان الأدب ٢٣٣/٢، وتهذيب اللغة ٥٦/١٠، وإصلاح المنطق ص ٨٧، وتاج العروس (سكر)، وأساس البلاغة (سكر).

فلا تكون كلاماً برأسه، ولكن فضلة من فضلات الكلام الأول، وانتصاب هذه الحال عن ضمير الفلك، كأنه قيل: اركبوا فيها مجرة ومرساة بسم الله بمعنى: التقدير؛ كقوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم، لما نجاكم.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٤) قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَفِينَ﴾ (٤٥)

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾؟

قلت: بمحذوف دل عليه: ﴿أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ﴾؛ كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون: بسم الله، ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ أي: تجري وهم فيها، ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾: يريد موج الطوفان، شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها.

فإن قلت: الموج: ما يرتفع فوق الماء عند اضطرابه وزخيره<sup>(١)</sup>، وكان الماء قد التقى وطبق ما بين السماء والأرض، وكانت الفلك تجري في جوف الماء كما تسبح السمكة، فما معنى جريها في الموج؟

قلت: كان ذلك قبل التطبيق، وقبل أن يغمر الطوفان الجبال؛ ألا ترى إلى قول ابنه: «سأوي. إلى جبل يعصمني من الماء». قيل: كان اسم ابنه: كنعان، وقيل: يام، وقرأ علي - رضي الله عنه -: «ابنهما»، والضمير لامراته، وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير: «ابنه»، بفتح الهاء، يريدان ابنها، فاكتفيا بالفتحة عن الألف، وبه ينصر مذهب الحسن، قال قتادة: سألته؟ فقال: والله ما كان ابنه، فقلت: إن الله حكى عنه: ﴿إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِ﴾ [هود: ٤٥]، وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه، فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب، واستدل بقوله: (من أهلي)، ولم يقل: مني، ولنسبته إلى أمه وجهان:

أحدهما/ ٣٣١ب: أن يكون ربيباً له، كعمر بن أبي سلمة لرسول الله ﷺ وأن يكون لغير رشدة، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء - عليهم السلام - وقرأ السدي: «ونادى نوح ابنه»، على الندبة والترثي، أي: قال: يا ابنه، والمعزل: مفعول، من عزله عنه إذا نحاه وأبعده، يعني: وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين، وقيل:

(١) قوله: «عند اضطرابه وزخيره» في الصحاح «زخر الوادي» إذا امتد جدا وارتفع. ومنه يقال: بحر زاخر.

كان في معزل عن دين أبيه، ﴿بَيْتٌ﴾ قرئ بكسر الياء؛ اقتصاراً عليه من ياء الإضافة، وبالفتح اقتصاراً عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة في قولك: يا بني، أو سقطت الياء والألف؛ لالتقاء الساكنين؛ لأنّ الرأ بعدهما ساكنة، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾: إلا الراحم وهو الله تعالى<sup>(١)</sup>، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله، أي: إلا مكان من رحم الله من المؤمنين، وكان لهم غفوراً رحيماً في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]، وذلك أنه لما جعل الجبل عاصماً من الماء، قال له: لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد، وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم، يعني: السفينة، وقيل: «لا عاصم»، بمعنى لا ذا عصمة إلا من رحمه الله؛ كقوله: ﴿مَاءٌ ذَائِقِيَ﴾ [الطارق: ٦]، و﴿عَيْشَةٌ رَائِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢١] وقيل: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾: استثناء منقطع، كأنه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم؛ كقوله: ﴿مَا لَكُمْ بِهِ مِنْ عَلِيمٍ إِلَّا أَنْبَاءُ الظُّلُمِ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقرئ: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾: على البناء للمفعول.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلَبِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ  
وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤)

نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز<sup>(٢)</sup> على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات، وهو قوله: ﴿يَا أَرْضُ﴾، و﴿وَنَسَمَاءَ﴾، ثم

(١) قال محمود: «المراد إلا الراحم وهو الله تعالى أو لا عاصم اليوم... إلخ» قال أحمد: والاحتمالات الممكنة أربعة: لا عاصم إلا راحم، ولا معصوم إلا مرحوم، ولا عاصم إلا مرحوم، ولا معصوم إلا راحم. فالأولان استثناء من الجنس، والآخران من غير الجنس. وزاد الزمخشري خامساً؛ وهو لا عاصم إلا مرحوم، على أنه من الجنس بتأويل حذف المضاف، تقديره: لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم. والمراد بالنفي التعريض بعدم عصمة الجبل، وبالمثبت التعريض بعصمة السفينة والكل جائز، وبعضها أقرب من بعض، والله أعلم.

(٢) قال محمود: «نداء الأرض والسماء بما ينادى به العاقل... إلخ» قال أحمد: ومن هذا النمط في السكوت عن ذكر الموصوف اكتفاء بصفاته لانفراده بها السكوت عن ذكر الأوصاف أحياناً، اكتفاء بذكر الموصوف لتبينه بها وتوحد فيها، وأنه متى ذكر مكانها قد ذكرت بذكره في مثل قوله ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾ الآية. والمراد: وهو الله الموصوف بصفات الكمال المشهور بها في العالمين. ومنه [من الرجز]:

أنا أبو النجم وشعري شعري

ولقد تحيل الشعراء على التعلق بأذيال هذه المعاني اللطيفة، فقال أبو الطيب يمدح عضد الدولة [من الرجز]:

لا تحمدنها واحمدن هماما إذ لم يسم حامد سواكا

يعني لا تمدح نفسك فإنك المنفرد بالمداح، حتى إذا ذكرت ولم يسم المعنى بها لم يسبق إلى ذهن أحد غيرك لتفردك بها.

أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله: ﴿أَبْلَى مَاءَكِ﴾، و﴿أَقْلَعِي﴾: من الدلالة على الاقتدار العظيم، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه، كأنها عقلاء مميزون، قد عرفوا عظمتهم، وجلالته، وثوابه، وعقابه، وقدرته على كل مقدور، وتبينوا تحت طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له، والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا إبطاء، والبلع: عبارة عن النشف، والإفلاع: الإمساك، يقال: أقلع المطر وأقلعت الحمى، و﴿وَغِيصَ الْمَاءِ﴾: من غاضه إذا نقصه، و﴿وَقَفَى الْأَمْرُ﴾: وأنجز ما وعد الله نوحاً من هلاك قومه، و﴿وَأَسْتَقَرَّتْ السَّفِينَةُ﴾: وهو جبل بالموصل، و﴿وَقِيلَ بَعْدَ﴾: بعد بعداً وبعداً، إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك؛ ولذلك اختص بدعاء السوء، ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل / ٣٣٢ قادر، وتكوين مكون قاهر، وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي، وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره، ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم، لا لتجانس الكلمتين، وهما قوله: (ابلعي)، و: (أقلعي)؛ وذلك، وإن كان لا يخلو الكلام من حسن، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور، وعن قتادة: استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم، واستقرت بهم على الجودي شهراً، وهبط بهم يوم عاشوراء، وروي أنها مرت بالبيت، فطافت به سبعاً، وقد أعتقه الله من الغرق، وروي أن نوحاً صام يوم الهبوط، وأمر من معه فصاموا شكراً لله تعالى.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾  
 قَالَ يَنْسُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْشَاكَ أَنْ  
 تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

نداؤه ربه: دعاؤه له، وهو قوله: ﴿رَبِّ﴾، مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله.

فإن قلت: فإذا كان النداء هو قوله: (رب)، فكيف عطف: (قال رب) على: (نادى) بالفاء؟

قلت: أريد بالنداء إرادة النداء، ولو أريد النداء نفسه ل جاء، كما جاء قوله: ﴿إِذْ نَادَى﴾

رَبِّهِمْ يَذَّاءُ حَفِيصًا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ ﴿مریم: ٣، ٤﴾ [بغير فاء، ﴿إِنَّ أَيْبَىٰ مِنِّي مِنْ أَهْلِي﴾ أي: بعض أهلي؛ لأنه كان ابنه من صلبه، أو كان ربيباً له فهو بعض أهله، ﴿وَإِنَّ رَعْدَكَ أَلْحَىٰ﴾: وأن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي، فما بال ولدي؟ ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْمَلِكِينَ﴾ أي: أعلم الحكام وأعدلهم<sup>(١)</sup>؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل، ورب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زمانك قد لقب أفضى القضاة، ومعناه: أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر، ويجوز أن يكون من الحكمة، على أن يبني من الحكمة حاكم بمعنى: النسبة كما قيل: دارع من الدرع، وحائض وطالق على مذهب الخليل، ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ تعليل لانتفاء كونه من أهله. وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب. وأن نسيك في دينك ومعتقدك من الأبعاد في المنصب<sup>(٢)</sup> وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقك وخصيصةك. ومن لم يكن على دينك - وإن كان أمس أقاربك رحماً - فهو أبعد بعيد منك، وجعلت ذاته عملاً غير صالح، مبالغة في ذمه، كقولها [من البسيط]:

..... فَيَأْتِسُّمَا هِيَ إِقْبَالَ وَإِذْبَارُ<sup>(٣)</sup>

وقيل: الضمير: لنداء نوح، أي: إن نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذاك.

فإن قلت: فهلا قيل: إنه عمل فاسد<sup>(٤)</sup>؟

(١) قال محمود: «قال أي أعلم الحكام وأعدلهم، لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم... إلخ» قال أحمد: ثم حدث بعد الزمخشري ترفع عن أفضى القضاة إلى قاضي القضاة، والذي تلاحظوا به في ارتفاع هذه الثانية على الأولى: أن الأولى تقتضي مشاركة القضاة لأفضاهم في الوصف، وأن يزداد عليهم، فترفعوا أن يشركهم أحد في وصفهم ممن دونهم في المنصب، فعدلوا عما يشاركه فيه إلى ما ليس كذلك، فأفردوا رئيسهم بتلقيبه بقاضي القضاة: أي هو الذي يقضي بين القضاة ولا يشركهم منهم أحد في وصفه، وجعلوا الذي يليه في الرتبة أفضى القضاة إلا أنهم إنما يعنون قاضي قضاة زمانه أو إقليمه. وإذا جاز أن يطلق على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أفضى قضاة الصحابة في زمانه كما أطلقه عليه النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال «أفضاكم علي» فدخل في المخاطبين القضاة وغيرهم، فلا حرج إن شاء الله أن يطلق على أعدل قضاة الزمان أو الإقليم وأعلمهم: قاضي القضاة، وأفضى القضاة، أي قضاة زمانه وبلده، وكل قرن ناجم في زمن فهو شبيه زمن فيه بدا هذا اللقب.

(٢) قوله: «من الأبعاد في المنصب» لعله تحريف، وأصله في النسب (ع).

(٣) تقدم.

(٤) قال محمود: «فهلا قيل: إنه عمل فاسد قلت لما نفاه عن أهله نفى عنه... إلخ» قال أحمد: ولهذا المعنى والله أعلم قيل له عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وإن كان مأموراً بالإنذار على العموم، ولكن لما كانت أهلية النبي عليه الصلاة والسلام مظنة الاتكال والفطور عن العمل، خص أهله بالإنذار إيذاناً بذلك، والله أعلم. ولهذا لما نزلت أنذرهم النبي ﷺ وقال: إني لا أملك لكم من الله شيئاً، أو قال ذلك كل واحد منهم بخصوصه.

قلت: لما نفاه عن أهله، نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقي معها لفظ المنفي، وآذن بذلك أنه إنما أنجى / ٣٣٢ب من أنجى من أهله لصلاحهم، لا لأنهم أهلك وأقاربك، وإن هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوتك؛ كقوله: ﴿كَانَتْ تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَاتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [التحریم: ١٠]، وقرئ: عمل غير صالح أي عمل عملاً غير صالح. وقرئ: «فلا تستلن»، بكسر النون بغير ياء الإضافة، وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء، يعني: فلا تلتمس مني ملتماً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب، حتى تقف على كنهه، وذكر المسألة دليل على أن النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه.

فإن قلت: لم سمي نداؤه سؤالاً ولا سؤال فيه؟

قلت: قد تضمن دعاؤه معنى السؤال وإن لم يصرح به؛ لأنه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشاركة ولده الغرق فقد استنجز، وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلاً وغباءة، ووعظه ألا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين.

فإن قلت: قد وعده أن ينجي أهله، وما كان عنده<sup>(١)</sup> أن ابنه ليس منهم ديناً، فلما أشفى على الغرق، تشابه عليه الأمر؛ لأن العدة قد سبقت له، وقد عرف الله حكيماً لا يجوز عليه فعل القبيح وخلف الميعاد، فطلب إمطة الشبهة وطلب إمطة الشبهة واجب، فلم زجر وسمي سؤاله جهلاً؟

قلت: إن الله - عز و علا - قدّم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب؛ لكونه غير صالح، وأن كلهم ليسوا بناجين، وألاً تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من

(١) قال محمود: «فإن قلت قد وعده الله أن ينجي أهله وما كان عنده... إلخ» قال أحمد: وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه يعتقد أن نوحاً عليه السلام صدر منه ما أوجب نسبة الجهل إليه ومعاتبته على ذلك، وليس الأمر كما تخيله الزمخشري، ونحن نوضح الحق في الآية منزلاً على نصها مع تنزيه نوح عليه السلام مما توهم الزمخشري نسبه إليه فنقول: لما وعد نوح أولاً تنجية أهله إلا من سبق عليه القول منهم ولم يكن كاشفاً لحال ابنه المذكور ولا مطلعاً على باطن أمره بل معتقداً بظاهر الحال أنه مؤمن، بقي على التمسك بصيغة العموم للأهلية الثابتة ولم يعارضها يقين في كفر ابنه حتى يخرج من الأهل ويدخل في المستثنين، فسأل الله فيه بناء على ذلك، فتبين له أنه في علمه من المستثنين، وأنه هو لا علم له بذلك، فلذلك سأل فيه، وهذا بأن يكون إبانة عذر أولى منه أن يكون عتياً، فإن نوحاً عليه السلام لا يكلفه الله علماً استأثر به غيباً. وأما قوله ﴿إِنَّ أَعْظَمَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فالمراد منه النهي عن وقوع السؤال في المستقبل بعد أن أعلمه الله باطن أمره، وأنه إن وقع في المستقبل في السؤال كان من الجاهلين. والغرض من ذلك تقديم ما يقيه عليه السلام على سمة العصمة، والموعظة لا تستدعي وقوع ذنب، بل المقصد منها أن لا يقع الذنب في الاستقبال، ولذلك مثل عليه الصلاة والسلام ذلك، واستعاذ بالله أن يقع منه ما نهى عنه والله أعلم.

المستئين لا من المستثنى منهم، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب ألا يشبهه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ  
الْخَسِرِينَ﴾ (٤٧)

﴿أَنْ أَسْأَلَكَ﴾: من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته؛ تبدأ بأدبك،  
واتعاضاً بموعظتك، ﴿وَأَلَّا تَغْفِرْ لِي﴾: ما فرط مني من ذلك، ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾: بالتوبة علي،  
﴿أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾: أعمالاً.

﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنْتَعِبُهُمْ ثُمَّ  
يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٨)

وقرى: «يا نوح اهبط»، بضم الباء، ﴿بِسَلَامٍ مِنَّا﴾: مسلماً محفوظاً من جهننا، أو  
مسلماً عليك مكرماً، ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾: ومباركاً عليك، والبركات الخيرات النامية، وقرئ:  
«وبركة»، على التوحيد، ﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾: يحتمل أن تكون من للبيان، فيراد  
الأمم الذين كانوا معه في السفينة؛ لأنهم كانوا جماعات، أو قيل لهم أمم؛ لأن الأمم  
تتشعب منهم، وأن تكون لإبداء الغاية، أي: على أمم ناشئة ممن معك، وهي الأمم إلى  
آخر الدهر وهو الوجه، وقوله: ﴿وَأُمَّمٌ﴾: رفع بالابتداء، و﴿سَنُنْتَعِبُهُمْ﴾: صفة، والخبر  
محذوف تقديره: وممن معك أمم سمتعهم؛ وإنما حذف؛ لأن قوله: (ممن معك) يدل  
عليه، والمعنى: أن السلام منا، والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك،  
وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار، وكان نوح - عليه / ٣٣٣ السلام - أبا  
الأنبياء، والخلق بعد الطوفان منه، وممن كان معه في السفينة، وعن كعب بن محمد  
القرظي: دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وفيما بعده من المتاع  
والعذاب كل كافر، وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلًا، منهم من  
رحم، ومنهم من عذب، وقيل: المراد بالأمم الممتعة: قوم: هود، وصالح، ولوط،  
وشعيب.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ  
الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩)

﴿تِلْكَ﴾: إشارة إلى قصة نوح - عليه السلام - ومحلها الرفع على الابتداء، والجمل  
بعدها أخبار، أي: تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك، مجهولة عندك وعند  
قومك، ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾: من قبل إيحائي إليك وإخبارك بها، أو من قبل هذا العلم الذي

كسبته بالوحي، أو: من قبل هذا الوقت، ﴿فَاصْبِرْ﴾: على تبليغ الرسالة وأذى قومك، كما صبر نوح، وتوقع في العاقبة لك، ولمن كذبك نحو ما قبض لنوح ولقومه، ﴿إِنَّ الْمَقِيَّةَ﴾: في الفوز والنصر والغلبة: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا قَوْمَكَ﴾: معناه: إن قومك الذين أنت منهم على كثرتهم، ووفور عددهم، إذ لم يكن ذلك شأنهم، ولا سمعوه، ولا عرفوه، فكيف برجل منهم كما تقول: لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده.

﴿وَالَّذِينَ عَادُوا آخَاهُمْ هُودًا قَالُوكَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ يَقُولُونَ لَا اسْتَلْكُمْ عَلَيْهِ جِزًّا ۖ إِن جِزًّا إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنَّا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ وَيَقُولُونَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۖ وَبُرِّزَكُمْ قُوَّةَ إِلِكُمْ فَوْتِكُمْ وَلَا تُلْوُوا مُحْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿آخَاهُمْ﴾: واحداً منهم، وانتصابه للعطف على أرسلنا نوحاً، و﴿هُودًا﴾: عطف بيان؛ و﴿غَيْرُهُ﴾: بالرفع: صفة على محل الجار والمجرور، وقرئ: «غيره»، بالجرّ صفة على اللفظ، ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾: تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء، ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول؛ لأنّ شأنهم النصيحة، والنصيحة لا يمحضها، ولا يمحضها إلا حسم المطامع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: إذ تردون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله، وهو ثواب الآخرة، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك، قيل: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾: آمنوا به، ﴿ثُمَّ تُوْبُوا إِلَيْهِ﴾: من عبادة غيره؛ لأنّ التوبة لا تصلح إلا بعد الإيمان، «والمدرار»: الكثير الدور، كالمغزار؛ وإنما قصد استمالتهم إلى الإيمان، وترغيبهم فيه، بكثرة المطر، وزيادة القوة؛ لأنّ القوم كانوا أصحاب زروع، وبياتين، وعمارات، حرّاصاً عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مدلين<sup>(١)</sup> بما أوتوا من شدة القوة، والبطش، والبأس، والنجدة، مستحززين بها من العدو، مهيبين في كل ناحية، وقيل: أراد القوة في المال، وقيل: القوة على النكاح، وقيل: حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نساءهم، وعن الحسن بن عليّ - رضي الله عنهما - أنه وفد على معاوية، فلما خرج، تبعه بعض حجاجه، فقال: إني رجل ذو مال ولا يولد لي، فعلمني شيئاً لعلّ الله يرزقني ولدًا، فقال: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة، فولد له عشر بنين، فبلغ / ٣٣٣ ب ذلك معاوية، فقال: هلا سألته ممّ قال ذلك، فوفد وفدة أخرى، فسأله

(١) قوله: «وكانوا مدلين» من الدل. وفي الصحاح: الدل قريب من الهدى، وهما من السكينة والوقار (ع).

الرجل؟ فقال: ألم تسمع قول هود - عليه السلام - : ﴿رَبِّدِّكُمْ قُوَّةَ إِنْ قُوَّتِكُمْ﴾، وقول نوح - عليه السلام - : ﴿وَيَمْدَدُكُمْ بِأَمْوَالٍ بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾، ﴿وَلَا تَتْلُوا﴾ : ولا تعرضوا عني، واما ادعواكم اليه وأرغبكم فيه، ﴿مُجْرِمِينَ﴾ : مصرين على إجرامكم وآثامكم .

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ

بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٢)

﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ : كذب منهم وجحود، كما قالت قریش لرسول الله ﷺ ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [يونس: ٢٠]، مع فوت آياته الحصر، ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ : حال من الضمير في تاركي آلهتنا، كأنه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ : وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه؛ إقناطاً له من الإجابة .

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا

تُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿اعْتَرَاكَ﴾ : مفعول نقول، وإلا لغو، والمعنى: ما نقول إلا قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، أي: خبلك ومسك بجنون لسبك إياها، وصدك عنها وعداوتك لها، مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين، وتهذي بهذيان المبرسمين<sup>(١)</sup>، وليس بعجب من أولئك أن يسموا التوبة والاستغفار خبلاً وجنوناً وهم عاد أعلام الكفر، وأوتاد الشرك؛ وإنما العجب من قوم من المتظاهرين بالإسلام، سمعناهم يسمون التائب من ذنوبه مجنوناً، والمنيب إلى ربه مخبلاً، ولم نجدهم معه على عشر مما كانوا عليه في أيام جاهليته من الموأدة؛ وما ذاك إلا لعرق من الإلحاد أبي إلا أن ينبض، وضب من الزندقة<sup>(٢)</sup> أراد أن يطلع رأسه، وقد دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت<sup>(٣)</sup>، ولا يلتفتون إلى النصح، ولا تلين شكيمتهم للرشد، وهذا الأخير دال على جهل مفرط وبله متناه؛ حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم، ولعلمهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب، من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة؛ وذلك لثقتة بربه، وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبتهم؛ ونحو ذلك قال نوح - عليه السلام -

(١) قوله: «المبرسمين» في الصحاح «البرسام» علة معروفة (ع).

(٢) قوله: «وضب من الزندقة» في الصحاح «الضب» الحقد. والضب: واحد ضباب النخل، وهو طلع (ع).

(٣) قوله: «لا يبالون بالبهت» رمي الشخص بما ليس فيه (ع).

لقومه: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، أكد براءته من آلهتهم، وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله وشهادة العباد، فيقول الرجل: الله شهيد على أنني لا أفعل كذا، ويقول لقومه: كونوا شهداء على أنني لا أفعله.

فإن قلت: هلا قيل: إني أشهد الله وأشهدكم؟<sup>(١)</sup>

قلت: لأن إشهد الله على البراءة من الشرك إشهد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشذ معاقده، وأما إشهدهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة/ ١٣٣٤، كما يقول الرجل لمن ييس الثرى بينه وبينه. اشهد على أنني لا أحبك؛ تهكماً به، واستهانة بحاله، ﴿مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: من إشراككم آلهة من دونه، أو مما تشركونه من آلهة من دونه، أي: أنتم تجعلونها شركاء له، ولم يجعلها هو شركاء، ولم ينزل بذلك سلطاناً، ﴿فَكَيْدُونِي جَيْعًا﴾: أنتم وآلهتكم أعجل ما تفعلون، من غير إنظار؛ فأني لا أبالي بكم وبكيدكم، ولا أخاف معزتكم وإن تعاونتم علي، وأنتم الأقرباء الشداد، فكيف تضرنني آلهتكم وما هي إلا جماد لا تضرم ولا ترفع، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصددت عن عبادتها، بأن تخبلني وتذهب بعقلي؟

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ مِنَ الْيُكْرِ وَنَسَخَلْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾

ولما ذكر توكله على الله، وثقته بحفظه، وكلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم، من كون كل دابة في قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانه، والأخذ بنواصيها، تمثيل لذلك، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به، ﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾: فإن تتولوا.

(١) قال محمود: «إن قلت هلا قيل أشهد الله وأشهدكم... إلخ» قال أحمد: وتلخيص ما قاله أن صيغة الخبر لا تحتل سوى الإخبار بوقوع الإشهد منه، فلما كان إشهد الله واقعاً محققاً عبر عنه بصيغة الخبر. لأنه إشهد صحيح ثابت، وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم وقلة المبالاة به، وهو مراده في هذا المقام معهم. ويحتمل أن يكون إشهد لهم حقيقة، والغرض إقامة الحججة عليهم، وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر؛ للتمييز بين خطابه الله تعالى وخطابه لهم، بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر، والله الموفق للصواب.

فإن قلت: الإبلاغ كان قبل التولي، فكيف وقع جزاء للشرط؟

قلت: معناه: فإن تولوا، لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ، وكنتم محجوجين بأن ما أرسلت به إليكم قد بلغكم، فأبيتم إلا تكذيب الرسالة، وعداوة الرسول، ﴿وَسْتَخْلِفُ﴾: كلام مستأنف، يريد: ويهلككم الله، ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾: بتوليكم، ﴿شَيْئًا﴾: من ضرر قط؛ لأنه لا يجوز عليه المضار والمنافع؛ وإنسا تضرون أنفسكم، وفي قراءة عبد الله: «ويستخلف»، بالجزم، وكذلك: «ولا تضروه»، عطفاً على محل: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾، والمعنى: إن يتولوا، يعذرني، ويستخلف قوماً غيركم، ولا تضروا إلا أنفسكم، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: رقيب عليه مهيم، فما تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مؤاخذتكم، أو من كان رقيباً على الأشياء كلها، حافظاً لها، وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضار، لم يضر مثله مثلكم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ قيل: كانوا أربعة آلاف.

فإن قلت: ما معنى تكرير التنجية؟

قلت: ذكر أولاً أنه حين أهلك عدوهم، نجاهم، ثم قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ على معنى: وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ؛ وذلك أن الله - عز وجل - بعث عليه السموم، فكانت تدخل في أنوفهم، وتخرج من أديبارهم، فتقطعهم عضواً عضواً، وقيل: أراد بالثانية: التنجية من عذاب الآخرة، ولا عذاب أغلظ منه وأشد، وقوله: «برحمة منا»، يريد: بسبب الإيمان الذي أنعمنا عليهم بالتوفيق له.

﴿وَتِلْكَ ءَاثَارُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَتِلْكَ ءَاثَارُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنه قال: سيحوا في الأرض، فانظروا إليها واعتبروا، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال: ﴿جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ /

٣٣٤ب؛ لأنهم إذا عصوا رسولهم، فقد عصوا جميع رسل الله، ﴿لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾. قيل: لم يرسل إليهم إلا هود وحده، ﴿كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، يريد: رؤساءهم، وكبراءهم، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل، ومعنى اتباع أمرهم: طاعتهم، ولما كانوا تابعين لهم دون الرسل، جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين، تكبهم على وجوههم في عذاب الله، و﴿الآ﴾: وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم؛ تهويل لأمرهم وتفضيح له، وبعث على الاعتبار بهم، والحذر من مثل حالهم.

فإن قلت: ﴿بَعْدًا﴾ دعاء بالهلاك، فما معنى الدعاء به عليهم بعد هلاكهم؟  
 قلت: معناه: الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له؛ ألا ترى إلى قوله [من المديد]:  
 إِخْوَتِي لَا تَبْعَدُوا أَبَدًا وَيَأْتِي وَاللَّهِ قَدْ بَعِدُوا<sup>(١)</sup>  
 ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾: عطف بيان لعاد.

فإن قلت: ما الفائدة في هذا البيان<sup>(٢)</sup>، والبيان حاصل بدونه؟  
 قلت: الفائدة فيه: أن يوسموا بهذه الدعوة وسماءً، وتجعل فيهم أمراً محققاً، لا شبهة  
 فيه بوجه من الوجوه، ولأن عاداً عادان: الأولى: القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم،  
 والأخرى: إرم.

﴿وَإِلَىٰ نُمُودٍ أَهَاهُمْ صَلِحًا قَالِ يَفْقَوْمٍ أَبْعَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ  
 الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَفِرُّوه ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿١١﴾﴾ قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ

(١) إخوتي لا تبعدوا أبداً      وبلي والله قد بعدوا  
 ما أمر العيش بعدكم      كل عيش بعدكم نكد  
 ليت شعري كيف شربكم؟      إن شربي بعدكم ثم  
 لفاطمة بنت الأحجم الخزاعية. وتقول العرب: بعد بالضم في ضد القرب، وبالكسر في الهلاك،  
 ومضارع الأول مضموم، ومضارع الثاني مفتوح. وما في البيت منه. وما أمر: تعجب، وشبهت  
 العيش وهو الحياة أو ما يعاش به بشيء مر على طريق المكينة، وإثبات المرارة تخيل. أو استعارتها  
 للتعص على طريق التصريحية. والتكد: العسر الضيق المنغص. والتمد: الماء القليل الذي لا مادة  
 له فينقطع سريعاً. ورجل مثمود، إذا كثر عليه السؤال من العلم أو المال حتى نفذ ما عنده.  
 والمعنى: أن سروري بعدكم منقطع كالماء القليل، وعبرت بذلك لمشاكلته ما قبله. ويروى لها بعد  
 البيت الأول:

لو تملتهم عشيرتهم      لاقتناء العز أو ولدوا  
 هان من بعض الرزية أو      هان من بعض الذي أجد  
 كل ما حي وإن أمروا      واردو الحوض الذي وردوا  
 ومعنى تملتهم: عاشوا معهم ملياً من الزمان، وأقحمت «من» مع إغناء «بعض» عنها، للدلالة على  
 تبغيض البغض. و«ما» مقحمة، بني كل حي مبالغة في العموم. وأمروا بالكسر: كثروا. والحوض:  
 تمثيل للموت.  
 ينظر: شرح شواهد المغني (٥٤٣/٢)، ومغني اللبيب (١٩٨/١)، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي  
 ص (٩١٢).

(١) قال محمود: «إن قلت ما الفائدة في هذا البيان وجعل قوم هود عطف بيان على عاد... إلخ» قال  
 أحمد: فيه أيضاً فائدتان جليلتان، إحداهما: النسبة بذكر هود الذي إنما استحقوا الهلاك بسببه على  
 موجب الدعاء عليهم، وكأنه قيل: عاد قوم هود الذي كذبوه، والأخرى تناسب الآي بذلك، فإن  
 قبلها ﴿وَأَنْبَعُوا أَمْرٌ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وقبل ذلك حفيظ وغليظ، وغير ذلك مما هو على وزن فاعيل  
 المناسب لفعول في القوافي، والله أعلم.

فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتْنَهَسْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١٧﴾  
 قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ  
 إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٨﴾ وَيَقَوْمِ هَٰذِهِ نَافَةٌ لَكُمْ ءَايَةٌ قَدَرُوهَا  
 تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٩﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي  
 دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُوٌّ كَذُوبٌ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ أُنْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ  
 ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يُومِيذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٢١﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ  
 ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنَاحِمٌ ﴿٢٢﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ءَلَا إِنَّ تَعْمُودًا كَفَرُوا  
 رَبَّهُمْ ءَلَا بَعْدَ لُتُمُودَ ﴿٢٣﴾

﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾: لم ينشئكم منها إلا هو، ولم يستعمركم فيها غيره، وإنشأوهم  
 منها خلق آدم من التراب، ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: وأمركم بالعمارة، والعمارة: ممنوعة إلى  
 واجب، وندب، ومباح، ومكروه، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار، وغرس  
 الأشجار، وعمروا الأعمار الطوال، مع ما كان فيهم من عسف الرعايا، فسأل نبي من أنبياء  
 زمانهم ربه عن سبب تعميرهم، فأوحى إليه: إنهم عمروا بلادهم، فعاش فيها عبادي، وعن  
 معاوية بن أبي سفيان أنه أخذ في إحياء الأرض في آخر أمره، ف قيل له، فقال: ما حملني  
 عليه إلا قول القائل [من البسيط]:

لَيْسَ الْفَتَىٰ بِفَتَىٰ لَا يُسْتَضَاءُ بِهِ وَلَا تَكُونُ لَهُ فِي الْأَرْضِ آثَارٌ (١)  
 وقيل: «استعمركم من العمر»، نحو: استبقاكم من البقاء، وقد جعل من العمرى،  
 وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون استعمر في معنى: أعمار؛ كقولك: استهلكه في معنى أهلكه،  
 ومعناه: أعماركم فيها دياركم، ثم هو وارثها منكم عند انقضاء أعماركم.

والثاني: أن يكون بمعنى: جعلكم معمرين دياركم فيها؛ لأن الرجل إذا ورث داره من  
 بعده، فكانما أعمارها؛ لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره، ﴿قَرِيبٌ﴾: داني الرحمة

(١) قوله: «فتى» خبر ليس. و«لا يستضاء به» صفته. ويجوز أنه حال من الفتى الأول، شبهه في حسن  
 الرأي وهداية المستشير بسراج منير. ويمكن أن شبهه بكوكب في السماء، ليقابل الأرض بعده.  
 والجامع ما مر. ويجوز أن الجامع أنه يكشف غمة الفقر، كما أن المشبه به يكشف ظلمة الليل،  
 وعلى كل حال فالاستضاءة تخييل. روي أنه قيل لمعاوية: لم أكثرت من حفر الأنهار وغرس  
 الأشجار وإحياء القفار؟ فقال: ما حملني عليه إلا هذا البيت، فالآثار هي ما كان يفعله. ويحتمل  
 أنها المكارم الموجبة للثناء بعد الفناء.

سهل المطلب، ﴿تُحِبُّ﴾: لمن دعاه وسأله، ﴿فِينَا﴾: فيما بيننا، ﴿مَرْجُوا﴾: كانت تلوح فيك مخايل الخير، وأمارات الرشد، فكنا نرجوك لنتنفع بك، وتكون مشاوراً في الأمور، ومسترشداً في التدابير، فلما نطقت بهذا القول، انقطع رجاؤنا عنك، وعلمنا أن لا خير فيك، وعن ابن عباس: فاضلاً خيراً نقدمك على جميعنا، وقيل: كنا نرجو أن تدخل في ديننا، وتوافقنا على / ١٣٣٥ ما نحن عليه، ﴿يَبْدُءُ أَيَاؤُنَا﴾: حكاية حال ماضية، ﴿مُرِبٍ﴾: من أرابه إذا أوقعه في الريبة، وهي قلق النفس، وانتفاء الطمأنينة باليقين، أو من «أراب الرجل»: إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازي، قيل: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَهٍ مِنْ رَبِّي﴾: بحرف الشك، وكان على يقين أنه على بينة؛ لأن خطابه للجاحدين، فكانه قال: قدروا أنني على بينة من ربي، وأني نبي على الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره، فمن يمنعني من عذاب الله؟ ﴿فَمَا تَزِيدُونِي﴾: إذن حينئذ<sup>(١)</sup>، ﴿غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾ يعني: تخسرون أعمالهم وتبطلونها، أو: فما تزيدونني بما تقولون لي، وتحملونني عليه غير أن أخسرهم، أي: أنسبكم إلى الخسران، وأقول لكم: إنكم خاسرون، ﴿ءَايَةٌ﴾: نصب على الحال، قد عمل فيها ما دلّ عليه اسم الإشارة من معنى الفعل.

فإن قلت: فبم يتعلق: ﴿لَكَ﴾؟

قلت: بآية حالاً منها متقدمة؛ لأنها لو تأخرت، لكانت صفة لها، فلما تقدمت، انتصبت على الحال، ﴿عَدَاتٍ قَرِيبٍ﴾: عاجل لا يستأخر عن مسك لها بسوء إلا يسيراً؛ وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم، ﴿تَمَتُّوا﴾: استمتعوا بالعيش، ﴿فِي دَارِكُمْ﴾: في بلدكم، وتسمى البلاد: الديار؛ لأنه يدار فيها، أي: يتصرف، يقال: ديار بكر، لبلادهم، وتقول العرب الذين حوالي مكة: نحن من عرب الدار، يريدون: من عرب البلد، وقيل: في دار الدنيا، وقيل: عقروها يوم الأربعاء، وهلكوا يوم السبت، ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: غير مكذوب فيه، فاتسع في الظرف بحذف الحرف، وإجرائه مجرى المفعول به؛ كقولك: يوم مشهود؛ من قوله [من الطويل]:

وَيَوْمٍ شَهْدَانُهُ.....

(١) قوله: «إذن حينئذ» لعل إحداهما مزيدة (ع).

(٢) ويوم شهدناه سليماً وعامراً قليل سوى الطعن النهال نوافله

يقول: ورب يوم شهدنا فيه، فحذف الجار وأوصل الضمير بالفعل، فصار الفعل كأنه متعد لمفعولين: الأول الضمير، والثاني: سليماً، أي قبيلتهما «قليل» صفة ليوم. و«نوافله» فاعل به، وقلة الغنائم لأن قومه لا تراعي حيازتها. أو المعنى أن أعداءه لا يبالون من قومه إلا الطعن، نهكاً بهم، فالاستثناء متصل. ويجوز أنه منقطع. ووصف المفرد بالجمع باعتبار أنواعه أو مراته، فهو متعدد أيضاً. والنهال: جمع ناهل، أي ريان أو عطشان على التشبيه هنا، فهو من الأضداد، ووصف =

أو على المجاز، كأنه قيل للوعد: نفى بك، فإذا وفى به، فقد صدق ولم يكذب، أو وعد غير كذب، على أن المكذوب مصدر كالمجلود والمعقول، وكالمصدوقة بمعنى: الصدق، ﴿وَمِنْ خَزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾: قرئ مفتوح الميم؛ لأنه مضاف إلى إذ، وهو غير متمكن؛ كقوله [من الطويل]:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا ..... (١)

فإن قلت: علام عطف؟

قلت: على نجينا؛ لأنّ تقديره: ونجيناهم من خزي يومئذ، كما قال: ﴿وَيَجْنِيهِمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨] على: وكانت التنجية من خزي يومئذ، أي: من ذلّه، ومهانتّه، وفضيحتّه، ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه يغضب الله وانتقامه، ويجوز أن يريد بيومئذ: يوم القيامة، كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة، وقرئ: ﴿أَلَا إِنَّ نَعُودًا﴾، و(نمود): كلاهما بالصرف وامتناعه، فالصرف للذهاب إلى الحيّ أو الأب الأكبر، ومنعه للتعريف والتأنيث، بمعنى: القبيلة.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمًا فَمَا لِي بِأَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَسِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَفَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يُتَوَلَّوْنَ أَوْلَادًا وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْعًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

= الطعن بأنه ناهل مجاز عقلي؛ لأن الذي يوصف به الرمح أو الفارس. والمعنى: أنهم يتشفون من غيظ قلوبهم بذلك الطعن.

البيت لرجل من بني عامر في الدرر ٩٦/٣، وشرح المفصل لابن يعيش ٤٦/٢، ولسان العرب (جزى)، الأشباه والنظائر ٣٨/١، وخزانة الأدب ١٨١/٧، ٢٠٢/٨، ١٧٤/١٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٨٨، مغني اللبيب ٥٠٣/٢، والمقتضب ١٠٥/٣، والمقرّب ١٤٧/١، وهمع الهوامع ٢٠٣/١، وأمالي ابن الشجري ٦/١، الكامل ٢١ والدر المصون ٢١٤/١.

(١) على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت: ألما أصح والشيب وازع؟

للنابغة الذبياني، وبنى حين على الفتح لإضافته إلى مبني، وشبه المشيب بمن يصح معه العتاب على طريق المكنية والعتاب تخييل، ويحتمل أن إيقاع العتاب على المشيب مجاز عقلي. والمعنى: عاتبت نفسي زمن الشيب على الصبا، أي الميل إلى الهوى كما يفعل الشبان. وقوله: «فقلت» بيان للعتاب، أي: إلى الآن لم أفق من سكرة الصبا، والحال أن الشيب زاجراً لي عن موجب العتاب، والاستفهام توبيخي: أي لا ينبغي ذلك، ووزعته فاتزع: كفته فامتنع؛ فالوازع الذي يصلح الصف ويمنعه عن الاعوجاج، وأوزعني: ألهمني ما يصلح شأني.

ينظر شرح المفصل ٤٥٨/١، وشرح الأشموني ٢٥٦/٢، شرح شواهد المغني ٨١٦/٢ و٨٨٣، والدر المصون ١٧/٢.

قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾

﴿سُئِلْنَا﴾: يريد الملائكة، عن ابن عباس: جاءه جبريل - عليه السلام - وملكان معه، وقيل: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: كانوا تسعة، وعن السدي: أحد عشر/ ٣٣٥ ب، ﴿بِالشَّرَفِ﴾: هي البشارة بالولد، وقيل: بهلاك قوم لوط، والظاهر الولد، ﴿سَلَمًا﴾: سلمنا عليك سلاماً، ﴿سَلِّمٌ﴾: أمركم سلام، وقرئ: «فقالوا سلما قال سلم»، بمعنى: السلام، وقيل: «سلم وسلام»، كحرم وحرام؛ وأنشد [من الطويل]:

مَرَزْنَا فَقُلْنَا: إِيهِ سَلِّمٌ فَسَلِّمَتْ كَمَا أَكْتَلُ بِالْبَرْقِ الْعَمَامُ اللَّوَائِحُ<sup>(١)</sup>

﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ﴾: فما لبث في المجيء به، بل عجل فيه، أو: فما لبث مجيئه، والعجل: ولد البقرة، ويسعى الحسيل والخشب بلغة أهل السراة، وكان مال إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - البقر، ﴿حَنِيدٌ﴾: مشوي بالرضف<sup>(٢)</sup> في أخدود، وقيل: (حنيد): يقطر دسمه، من حنذت الفرس، إذا ألقيت عليها الجل حتى تقطر عرقاً؛ ويدل عليه: ﴿بِعَجَلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]، يقال: نكره، وأنكره، واستنكره، ومنكور: قليل في كلامهم، وكذلك: أنا أنكرك، ولكن منكر، ومستنكر، وأنكرك، قال الأعشى: [البسيط]

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرْتِ مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلْعَا<sup>(٣)</sup>

قيل: كان ينزل في طرف من الأرض، فخاف أن يرويدوا به مكروهاً<sup>(٤)</sup>، وقيل: كانت

(١) لذي الرمة غيلان بن عقبة، يقول: مررنا بديار المحبوبة مي، فقلنا إيه، أي حدثي واستأنسي، فأسرنا سلم، أي سلامة وأنس، فسلمت علينا ولمعت ثناياها وغابت بسرعة، كما لمع الغمام بلمعان البرق وغاب البرق بسرعة. واكتل اكتلالاً: لمع لمعاناً واللوائح الظواهر: صفة للغمام، لتعدده معنى.

ينظر البيت في البحر المحيط ٢٤٢/٥، ومعاني الفراء ٢١/٢، وروح المعاني ٩٤/١٢، والطبري ٣٨٣/١٥، واللسان (سلم)، والدر المصون ١١٢/٤.

(٢) قوله: «مشوي بالرضف» أي الحجارة المحماة، كما في الصحاح (ع).

(٣) للأعشى. ويقال: أنكره ونكره: جهله ونفر منه: أي جهلتنى المحبوبة، وما كان الذي أنكرته من الحوادث إلا الشيب والصلع وهو انحسار شعر الرأس. وقيل: إن أبا عبيدة سمع بشاراً ينكر نسبة هذا البيت للأعشى ويقول: إنه مصنوع عليه لا يشبه كلامه، فتعجب أبو عبيدة من فطنته، كأنه صح عنده إنكاره.

ينظر ديوانه (١٣٧)، والمحتسب ٢٩٨/٢، والخصائص ٣١٠/٣، ومجاز القرآن ٢٩٣/١، والبحر المحيط ٢٤٢/٥، وروح المعاني ٩٠/١٢، والتهذيب ١٩١/١٠، وإعراب النحاس ٢٩٢/٢، والدر المصون ١١٣/٤، الموشح ٥٢، الصحاح (نكر)، التاج (نكر)، الأغاني ١٨/١٦.

(٤) قال محمود: «قيل إنه كان ينزل في طرف من الأرض فخاف أن يرويدوا به مكروهاً... إلخ» قال أحمد: وقد وردت قصة إبراهيم هذه في ثلاثة مواضع: هذا أحدها، وهو دال على أنه إنما أوجس =

عادتهم أنه إذا مس من يطرقهم طعامهم آمنوه وإلا خافوه، والظاهر: أنه أحسن بأنهم ملائكة، ونكرهم؛ لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه، أو لتعذيب قومه؛ ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْرًا لُوطًا﴾ وإنما يقال هذا لمن عرفهم، ولم يعرف فيم أرسلوا، (فأوجس): فأضمر<sup>(١)</sup>؛ وإنما قالوا: (لا تخف)؛ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه، أو عرفوه بتعريف الله، أو علموا أن علمه بأنهم ملائكة موجب للخوف؛ لأنهم كانوا لا ينزلون إلا بعذاب، ﴿وَأَمْرًا أَنْتُمْ قَائِمَةٌ﴾ قيل: كانت قائمة وراء الستر تسمع تحاورهم، وقيل: كانت قائمة على رؤوسهم تخدمهم، وفي مصحف عبد الله: «وامراته قائمة» وهو قاعد، ﴿فَضَحَكْتَ﴾: سروراً بزوال الخيفة<sup>(٢)</sup>، أو بهلاك أهل الخبائث، أو: كان ضحكها ضحك إنكار؛ لغفلتهم، وقد أظلمهم العذاب، وقيل: كانت تقول لإبراهيم: اضمم لوطاً ابن أخيك إليك؛ فإني أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذاب، فضحكت سروراً لما أتى الأمر على ما توهمت، وقيل: ضحكت فحاضت، وقرأ محمد بن زياد الأعرابي: (فضحكت) بفتح الحاء، ﴿يَعْقُوبُ﴾: رفع بالابتداء، كأنه قيل: ومن وراء إسحاق يعقوب مولود أو موجود، أي: من بعده، وقيل: الورا: ولد الولد، وعن الشعبي أنه قيل له: أهدا ابنك؟ فقال: نعم، من الورا، وكان ولد ولده، وقرئ: (يعقوب): بالنصب، كأنه قيل: «ووهبنا لها إسحاق»، ومن وراء إسحاق يعقوب؛ على طريقة قوله [من الطويل]:

لَيْسُوا مُضْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلَا نَاعِبٍ.....<sup>(٣)</sup>

= منهم خيفة لعلمه أنهم ملائكة وعدم علمه فيم جاؤوا. الثاني: في الحجر قوله ﴿وَيَذِثُهُمْ عَن صَدِيقِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله ﴿لَا تَزِجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ فلم يطمئنا بإعلامه أنهم ملائكة، ولكن بأنهم يشرون له، فدل على استعماهم أنه علم كونهم ملائكة ووجل مما جاؤوا فيه. الثالث: في الذاريات ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ﴾ فهو أيضاً كذلك. وأما لوط فلم يشعر أنهم ملائكة حتى أعلموه بذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَبْرَأَ إِلَيْكَ﴾ فأول ما أعلموا به أنهم رسل، فالفرق بين هذه الآية وبين آي إبراهيم، مصداق لأن إبراهيم علم كونهم ملائكة ولوطاً لم يعلم ذلك، ولا يبعد من فضل إبراهيم على لوط أن يبعد على فراسته أن يعلم أنهم ملائكة دون لوط عليهما السلام.

(١) عاد كلامه. قال: «ومعنى أوجس أضمر وإنما قالوا لا تخف لأنهم رأوا أثر الخوف... إلخ» قال أحمد: وهذا التأويل وهم فيه الزمخشري والله أعلم، لأنهم إنما علموا خوفه ووجله بإخباره إياهم بذلك، ويدل عليه قوله تعالى في آية أخرى ﴿قال إنا منكم ووجلون قالوا لا تجرل﴾ والقصة واحدة. والله موفق للصواب.

(٢) عاد كلامه. قال: «وضحك زوجته لأنها سرت بذهاب الخيفة... إلخ» قال أحمد: ويبعد هذا التأويل أنها قالت بعد (يا ويلتنا ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشيء عجيب) فلو كان حيضها قبل بشارتها لما تعجبت، إذ لا عجب في حمل من تحيض، والحيض في العادة مهماز على إمكان الحمل، والله موفق.

(٣) تقدم.

الألف في: ﴿يَتَوَلَّى﴾: مبدلة من ياء الإضافة، وكذلك في: «يا لهفأ»، و«يا عجبأ»،  
 وقرأ الحسن: «يا ويلتي»، بالياء على الأصل، و﴿شَيْئًا﴾: نصب بما دل عليه اسم  
 الإشارة، وقرئ شيخ، على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا بعلي هو شيخ، أو بعلي:  
 بدل من المبتدأ، وشيخ: خير، أو يكونان معاً خبرين، قيل: بشرت ولها ثمان وتسعون  
 سنة، ولإبراهيم مائة/ ١٣٣٦ وعشرون سنة، ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾: أن يولد ولد من  
 هرمين، وهو استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله؛ وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها  
 ف ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ لأنها كانت في بيت الآيات، ومهبط المعجزات والأمور  
 الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقر، ولا يزدهيها<sup>(١)</sup> ما يزدهي سائر النساء الناشئات في  
 غير بيوت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب، وإلى ذلك أشارت الملائكة -  
 صلوات الله عليهم - في قولهم: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾: أرادوا أن هذه  
 وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة، فليست بمكان  
 عجب، وأمر الله: قدرته وحكمته، وقوله: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾: كلام مستأنف علل  
 به إنكار التعجب، كأنه قيل: إياك والتعجب؛ فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله  
 عليكم، وقيل: «الرحمة النبوة»، والبركات الأسباب من بني إسرائيل؛ لأن الأنبياء منهم،  
 وكلهم من ولد إبراهيم، ﴿حَمِيدٌ﴾: فاعل ما يستوجب به الحمد من عباده، ﴿مَجِيدٌ﴾: كريم  
 كثير الإحسان إليهم، وأهل البيت: نصب على النداء أو على الاختصاص؛ لأن (أهل  
 البيت): مدح لهم؛ إذ المراد: أهل بيت خليل الرحمن.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ  
 مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾

(الروع): ما أوجس من الخيفة، حين نكر أضيافه، والمعنى: أنه لما اطمأن قلبه بعد  
 الخرف وملئ سروراً بسبب البشرى بدل الغم، فرغ للمجادلة.

فإن قلت: أين جواب لما؟

قلت: هو محذوف كما حذف قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا﴾ [يوسف: ١٥]، وقوله:  
 ﴿يُجَادِلُنَا﴾: كلام مستأنف دال على الجواب، وتقديره: اجترأ على خطابنا، أو فطن  
 لمجادلتنا، أو قال: كيت وكيت، ثم ابتداء فقال: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ وقيل في:  
 (يجادلنا)، هو: جواب لما؛ وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال، وقيل: إن «لما» ترد  
 المضارع إلى معنى الماضي، كما ترد «إن»: الماضي إلى معنى الاستقبال، وقيل: معناه:

(١) قوله: «ولا يزدهيها» في الصحاح: زهاه وازدهاه: استخفه وتهاون به (ع).

أخذ يجادلنا، وأقبل يجادلنا، والمعنى: يجادل رسلنا، ومجادلته إياهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [المنكبات: ٣١]، فقال: رأيتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ العشرة، قالوا: لا، قال: رأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فعند ذلك قال: ﴿إِنِّي فِيهَا لَطُوطٌ﴾ [المنكبات: ٣٢]، ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [المنكبات: ٣٢]، ﴿فِي قَوْمٍ لُّوطٍ﴾: في معنهم، وعن ابن عباس: قالوا له: إن كان فيها خمسة يصلون، رفع عنهم العذاب، وعن قتادة: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير<sup>(١)</sup>، وقيل: كان فيها أربعة آلاف ألف إنسان، ﴿إِنَّا إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾: غير عجول على كل من/ ٣٣٦ أساء إليه، ﴿أَوَّاهٌ﴾: كثير التأوه من الذنوب، ﴿مُنِيبٌ﴾: تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى، وهذه الصفات دالة على رقة القلب، والرفقة، والرحمة، فبين أن ذلك مما حملة على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب، ويمهلوا لعلمهم يحدثون التوبة، والإنابة كما حملة على الاستغفار لأبيه.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ عَذَابٍ عَنِيبٍ مَّرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾: على إرادة القول، أي: قالت له الملائكة، ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾: الجدل، وإن كانت الرحمة ديدنك، فلا فائدة فيه، ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾: وهو قضاؤه، وحكمه الذي لا يصدر إلا عن صواب وحكمة، والعذاب نازل بالقوم لا محالة، لا مرد به بجدال، ولا دعاء، ولا غير ذلك.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

كانت مساء لوط وضيق ذرعه؛ لأنه حسب أنهم إنس، فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم، روي أن الله تعالى قال لهم: «لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات»، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله، قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً، يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها، يقال: يوم عصيب، وعصوب، إذا كان شديداً من قولك: عصبه، إذا شده.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفِقُونَ هُنَا لَنَا بِنَاتِي هُنَّ أَظْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا فِي صَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ قالوا لقد علمت ما

(١) قوله: «عشرة فيهم خير» لعله عشرة يصلون.

لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّي وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُنَّ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾

﴿يَهْرَعُونَ﴾: يسرعون كأنما يدفعون دفعاً، ﴿وَمِنْ قَبْلِ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها، ففرضوا بها ومرنوا عليها وقل عندهم استقباحها؛ فلذلك جاؤوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء، وقيل: معناه: وقد عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك، ﴿هُؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾؛ أراد أن يقي أضيافه بناته؛ وذلك غاية الكرم، وأراد: هؤلاء بناتي فتزوجوهن، وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزاً، كما زوج رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن وائل قبل الوحي، وهما كافران (٧٦٤)، وقيل: كان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما ابنتيه: وقرأ ابن مروان: «هن أظهر لكم»، بالنصب، وضعفه سيبويه، وقال: احتبى ابن مروان في لحنه، وعن أبي عمرو بن العلاء: من قرأ: (هن أظهر): بالنصب فقد تربع في لحنه؛ وذلك أن انتصابه على أن يجعل حالاً قد عمل فيها ما في هؤلاء من معنى الفعل، كقوله: ﴿وَهَذَا بَعِيَ شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]، أو ينصب هؤلاء بفعل مضمر، كأنه قيل: خذوا هؤلاء، وبناتي: بدل، ويعمل هذا المضمر في الحال، و(هن): فصل، وهذا لا يجوز؛ لأن الفصل مختص بالوقوع بين جزأي الجملة، ولا يقع بين الحال وذوي الحال، وقد خَرَجَ له وجه لا يكون

٧٦٤ - أخرجه الطبراني في معجمه (٤٢٦/٢٢) رقم (١٠٥٠)، وابن هشام في سيرته (٣٢٣/٢) رقم (٨٠٩)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة»: ص (٣٤٣ - ٣٤٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة»: (٣٣٨ - ٣٣٩)؛ وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٢١٨/٩ - ٢١٩)، وقال: رواه الطبراني وإسناده منقطع. قال الحافظ:

قوله «وضيق ذرعه» في الصحاح: يقال ضقت بالامر ذرعاً، إذا لم تعلقه ولم تقر عليه. وأصل الذرع إنما هو بسط اليد؛ فكانك تريد: مدت يدي إليه فلم تنله. قلت: قوله «أبو العاص بن وائل» غلط فاحش، وإنما هو أبو العاص بن الربيع، ليس في نسبه من اسمه وائل. وكأنه انتقل ذهنه إلى العاص بن وائل السهمي والد عمرو وليس له في هذه القضية مدخل، وأما قصة تزويج أبي العاص بن الربيع بنت رسول الله ﷺ وكذا عتبة بن أبي لهب فذكرها ابن إسحاق في المغازي والطبراني من طريقه قال: كان أبو العاص بن الربيع من رجال مكة مالا وأمانة، وكانت خديجة خالته. فسألت خديجة رسول الله ﷺ أن يزوجه بزینب وكان لا يخالفها؛ وذلك قبل أن ينزل عليه، فلما أكرم الله نبيه ﷺ بالنبوة آمنت خديجة وبناته، وثبت أبو العاص على شركه. قال: وكان رسول الله ﷺ قد زوج عتبة بن أبي لهب بنته رقية. فلما دعا قريشاً إلى أمرين قال بعضهم لبعض: قد فرغتم محمداً من همه بناته. فردوهن عليه فمشوا إلى أبي العاص. فأبى عليهم. ثم مشوا إلى عتبة بن أبي لهب. ففارق رقية. وزوجه بنت سعيد بن العاص. فتزوجها بعدة عثمان بن عفان. فذكر قصة أبي العاص وأسرته ببدر، وروى البيهقي في الدلائل من طريق قتادة: «أن النبي ﷺ زوج ابنته أم كلثوم في الجاهلية عتبة ابن أبي لهب. ورقية أخاه. فلما جاء الإسلام أمر أبو لهب ولديه فطلقا البنتين. انتهى.

(هَنْ) فيه فصلاً؛ وذلك أن يكون هؤلاء مبتدأ، و(بناتي هَنْ): جملة في موضع خبر المبتدأ؛/ ٣٣٧ أ كقولك: هذا أخي هو، ويكون: (أظهر): حالاً، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: بإيثار هَنْ عليهم، ﴿ولا تخزون﴾: ولا تهينوني، ولا تفضحوني، من الخزي، أو: ولا تخجلوني، من الخزية وهي الحياء، ﴿في صَبِيحٍ﴾: في حق ضيوف؛ فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره، فقد خزي الرجل؛ وذلك من عِراقة الكرم وأصالة المروءة، ﴿الَّذِينَ يَنْكُرُ رَجُلٌ رَثِيلاً﴾: رجل واحد يهتدي إلى سبيل الحق وفعل الجميل، والكف عن السوء، وقرئ: ﴿ولا تخزون﴾، بطرح الياء، ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم، وإظهاراً لشدة امتعاضه<sup>(١)</sup> مما أوردوا عليه؛ طمعاً في أن يستحيوا منه، ويرقوا له إذا سمعوا ذلك، فيتركوا له ضيوفه، مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده، وعندهم ألا مناكحة بينه وبينهم، ومن ثم: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾: مستشهدين بعلمه، ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ﴾؛ لأنك لا ترى مناكحتنا، وما هو إلا عرض سابري<sup>(٢)</sup>، وقيل: لما اتخذوا إتيان الذكران مذهباً وديناً لتواطؤهم عليه، كان عندهم أنه هو الحق، وأن نكاح الإناث من الباطل؛ فلذلك قالوا: ما لنا في بناتك من حق قط؛ لأن نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذي نحن عليه، ويجوز أن يقولوه على وجه الخلاعة، والغرض نفي الشهوة، ﴿لَتَعْلَمَنَّ مَا نُزِيذُ﴾: عنوا إتيان الذكور، وما لهم فيه من الشهوة.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾

جواب «لو»: محذوف؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]، يعني: لو أن لي بكم قوّة، لفعلت بكم وصنعت، يقال: مالي به قوّة، ومالي به طاقة؛ ونحوه: ﴿لَا قِيْلَ لَهُمْ بِهَا﴾ [النمل: ٣٧]، ومالي به يدان؛ لأنه في معنى: لا أضطلع به ولا أستقلّ به، والمعنى: لو قويت عليكم بنفسي، أو أويت إلى قوتي أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم، فشبّه القويّ العزيز بالركن من الجبل في شدّته ومنعته؛ ولذلك قالت الملائكة؛ وقد وجدت عليه -: إن ركنك لشديد، وقال النبي ﷺ «رَجِمَ اللَّهُ أَخِي لُوطًا، كَانَ يَأْوِي إِلَيَّ رُكْنٍ شَدِيدٍ» (٧٦٥) وقرئ: (أو آوي): بالنصب بإضمار «أن»، كأنه قيل:

٧٦٥ - أخرجه البخاري (٦١/٩): كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ

- (١) قوله: «لشدة امتعاضه» امتعض من الأمر: غضب منه وشق عليه، كذا في الصحاح (ع).  
(٢) قوله: «وما هو إلا عرض سابري» عرض سابري بفتح العين: نوع من الثياب رقيق، منسوب إلى سابور من الأكاسرة، كذا بهامش. وفي الصحاح: عرضت له الشيء. أي أظهرته له وأبرزته إليه. يقال: عرضت له ثوباً مكان حقه. وفي المثل: عرض سابري؛ لأنه ثوب جيد يشتري بأول عرض ولا يبالغ فيه.

لو أن لي بكم قوة أو أوياء؛ كقولها [من الوافر]:

لَلْبَسِ عِبَاءَةً وَتَقَرَّ عَيْنِي ..... (١)

وقرئ: (إلى ركن): بضميتين، وروى أنه أغلق بابه حين جاءوا أو جعل يراذهم ما حكى الله عنه ويجادلهم، فتسوروا الجدار.

﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْمِزُكَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكْتُمُ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ

بِقُرْبٍ ﴿٨١﴾

= تحيي الموتى، حديث (٤٥٣٧)، ومسلم (٤٦٠/١ - النووي): كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، حديث (١٥١/٢٣٨)، ومسلم أيضاً (١٣٤/٨ - النووي): كتاب الفضائل: باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام، حديث (١٥١/١٥٢)، وابن ماجه (١٣٣٥/٢) كتاب الفتن: باب الصبر على البلاء، حديث (٤٠٢٦)؛ كلهم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة به.  
قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث.

(١) لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلي من قصر منيف  
ولبس عباءة وتقر عيني أحب إلي من لبس الشفوف

لميسون بنت بحدل الكلية أم يزيد بن معاوية، ضاق صدرها من عشرة معاوية فقال: أنت اليوم في ملك لا تدرين قدره، وكنت قبله في العباءة، فقالت ذلك، أي: لبيت الشعر تضطرب الرياح فيه، أحب إلي من قصر عال مرتفع، من أناف إنافة: ارتفع. ومن العرب من يقول: أرياح في جمع ربح، خوف الاشتباه بجمع روح، كأعياد في عيد، خوف الاشتباه بالعود. ولبس: عطف على ما قبله. ورواية «اللبس» على أنه هو المبتدأ تحريف وإن كثرت. ولبس عباءة خشنة من الصوف وقرعة عيني مع ذلك وسروري، أحب إلي من لبس الشفوف وسخونة عيني وحزني. والشفوف - جمع شف - الرقيق من الثياب، كأنه لا يحجب ما وراءه. وشف يشف شفوفاً. نحل جسمه. وشفه يشفه بالكسر شفا: نحله.

ينظر خزانة الأدب ٥٠٣/٨، ٥٠٤، والدرر ٩٠/٤، وشرح التصريح ٢٤٤/٢، ولسان العرب (مسن)، والمقاصد النحوية ٣٩٧/٤، ومغني اللبيب ٢٦٧/١، وشرح شواهد المغني ٦٥٣/٢، والمحتسب ٣٢٦/١، وسر صناعة الإعراب ٢٧٣/١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٤٧٧، وشرح شذور الذهب ص ٤٠٥، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٥٠، والكتاب ٤٥/٣، والمقتضب ٢٧/٢، وشرح الأشموني ٥٧١/٣، وشرح المفصل ٢٥٠/٧، وشرح عمدة الحافظ ص ٣٤٤، وشرح ابن عقيل ص ٥٧٦، وشرح قطر الندى ص ٢٦٥، وخزانة الأدب ٥٢٣/٨، والرد على النحاة ص ١٢٨، والأشباه والنظائر ٢٧٧/٤، وأوضح المسالك ١٩٢/٤، والجنى الداني ص ١٥٧، ورسف المباني ص ٤٢٣، والصاحبي في فقه اللغة ص ١١٢، ١١٨، والدر المصون ١/٣٥٥، فتح القدير ٥٣/٢.

فلما رأَت الملائكة ما لقي لوط من الكرب، قالوا: يا لوط، إن ركنك لشديد، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾: فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا، فاستأذن جبريل - عليه السلام - ربه في عقوبتهم، فأذن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه - وله جناحان وعليه وشاح من دَرٍ منظوم، وهو براق الثنايا - فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم، كما قال الله / ٣٣٧ ب تعالى: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧]، فصاروا لا يعرفون الطريق؛ فخرجوا وهم يقولون: النجاة النجاة، فإن في بيت لوط قوماً سحرة، ﴿لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾: جملة موضحة للتي قبلها؛ لأنهم إذا كانوا رسل الله، لم يصلوا إليه، ولم يقدرُوا على ضرره، قرئ: ﴿فَأَثَرٌ﴾: بالقطع والوصل، و﴿إِلَّا أَمْرًا نَّكَ﴾: بالرفع والنصب، وروي أنه قال لهم: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح، فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿الْيَسَّ الصَّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، وقرئ: ﴿الصَّبْحُ﴾: بضمين.

فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ: ﴿إِلَّا أَمْرًا نَّكَ﴾ بالنصب؟

قلت: استثناء من قوله: ﴿فَأَثَرٌ بِأَهْلِكَ﴾؛ والدليل عليه قراءة عبد الله: «فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك»، ويجوز أن ينتصب عن لا يلتفت، على أصل الاستثناء، وإن كان الفصيح هو البدل، أعني قراءة من قرأ بالرفع، فأبدلها عن أحد، وفي إخراجها مع أهله روايتان: روي أنه أخرجها معهم، وأمر ألا يلتفت منهم أحد إلا هي، فلما سمعت، هذّة العذاب التفت، وقالت: يا قوماه، فأدركها حجر فقتلها، وروي أنه أمر بأن يخلفها مع قومها؛ فإن هواها إليهم، فلم يسر بها، واختلاف القراءتين؛ لاختلاف الروائتين.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَنِيبَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ (٨٢)

﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٣)

﴿جَعَلْنَا عَنِيبَهَا سَافِلَهَا﴾: جعل جبريل جناحه في أسفلها، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب، وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم، ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ قيل: هي كلمة معربة من سنكلل؛ بدليل قوله: «حجارة من طين»، وقيل: «هي من أسجله»؛ إذا أرسله؛ لأنها ترسل على الظالمين؛ ويدل عليه قوله: ﴿لِيُرِيدَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ [الذاريات: ٣٣]، وقيل: مما كتب الله أن يعذب به من السجل، وسجل لفلان، ﴿مَّنْضُودٍ﴾<sup>(١)</sup>: نضد في السماء نضداً معدداً للعذاب، وقيل: يرسل بعضه في أثر بعض متتابعاً، ﴿الْمُسَوَّمَةُ﴾: معلمة للعذاب، وعن الحسن: كانت معلمة بياض وحمرة، وقيل: عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض، وقيل: مكتوب على كل واحد: اسم

(١) قوله: «منضود» في الصحاح: نضد متاعه ينضده بالكسر نضداً، أي: وضع بعضه فوق بعض (ع).

من يرمي به، ﴿وَمَا هِيَ﴾: من كل ظالم ببعيد، وفيه وعيد لأهل مكة، وعن رسول الله ﷺ أنه سأله جبريل، عليه السلام؟ فقال: يعني ظالمي أمتك، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة (٧٦٦)، وقيل: الضمير: للقري، أي: هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في مسائرهم، ﴿بِيعِيدٍ﴾: بشيء بعيد، ويجوز أن يراد: وما هي بمكان بعيد؛ لأنها وإن كانت في السماء وهي مكان بعيد، إلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شيء لحوقاً بالمرمى، فكانها بمكان قريب منه.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَتَّبِعُوا الْكَيْدَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمِ أَتَوْا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ لِلَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

﴿إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ يريد: بثروة واسعة، تغنيكم عن التطفيف، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون، أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه، / ٣٣٨، كقول مؤمن آل فرعون: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَيْتِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]، ﴿يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾: مهلك من قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ [الكهف: ٤٢]، وأصله: من إحاطة العدو.

فإن قلت: وصف العذاب بالإحاطة أبلغ، أم وصف اليوم بها؟ قلت: بل وصف اليوم بها؛ لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه، فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه. فإن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء<sup>(١)</sup>، فما فائدة قوله أوفوا؟ قلت: نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان؛ لأن في

٧٦٦ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٤٨/٢): غريب، وذكره الثعلبي عن أنس من غير سند. وقال ابن حجر: ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند. انتهى.

(١) قال محمود: «إن قلت النهي عن النقصان أمر بالإيفاء... إلخ» قال أحمد: ولمن قال إن الأمر بالشيء ليس نهياً عن ضده أن يستدل بهذه الآية، فإن الأمر لو كان عين النهي عن الضد، لكان وروده عقبه تكراراً. وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه وهم، فاعتقد أن النهي في الآية قبل الأمر، وذلك سهو وغفلة، وكل مأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم: وأما قوله: إن الإيفاء حسن في العقول، فتفريع على قاعدة التحسين والتقيح، وقد سبق بطلانها، وبيننا أن التحسين والتقيح موظفان من الشرع، ولا مجال للعقل في حكم سمعي.

التصريح بالقبيح نعيماً على المنهي وتعبيراً له، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه؛ لزيادة ترغيب فيه، وبعث عليه، وجيء به مقيداً بالقسط، أي: ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية، من غير زيادة ولا نقصان، أمراً بما هو الواجب؛ لأن ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه، وفيه توقيف على أن الموفي عليه أن ينوي بالوفاء بالقسط؛ لأن الإيفاء وجه حسنه أنه قسط وعدل، فهذه ثلاث فوائد.

البخس: الهضم والنقص، ويقال للمكس: البخس؛ قال زهير [من الطويل]:

..... وَفِي كُلِّ مَا بَاعَ أَمْرٌ مَكْسٌ دِرْهَمٌ<sup>(١)</sup>

وروي: مكس درهم، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئاً، كما تفعل السماسرة، أو كانوا يمكسون الناس، أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء، فنهوا عن ذلك، والعثي في الأرض نحو السرقة، والغارة، وقطع السبيل، ويجوز أن يجعل التطفيف والبخس عثياً منهم في الأرض، ﴿يَقِيْتُ اللَّهَ﴾: ما يبقى لكم من الحلال<sup>(٢)</sup> بعد التنزه عما هو حرام عليكم، ﴿خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: بشرط أن تؤمنوا؛ وإنما خوطبوا بترك التطفيف، والبخس، والفساد في الأرض، وهم كفرة بشرط الإيمان.

فإن قلت: بقية الله خير للكفرة؛ لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس<sup>(٣)</sup> والتطفيف،

(١) أفي كل أسواق العراق إتاوة؟! وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

ألا تستحي منا ملوك وتتقي محارمنا لا تتقي الدم بالدم

لزهير. وقيل: لجابر بن حيي التغلبي، والاستفهام للتعجب أو للتوبيخ، والإتاوة كالكتابة: الرشوة والجماعة. يقال: أتوته أتوه أتوا وإتاوة: أعطيته الخراج، فهي في الأصل مصدر. والمكس: ما يأخذه العشار. وروي «بخس درهم» أي نقص درهم، وكان أهل العراق يفعلون ذلك في أسواقهم مع العرب وغيرهم، فقال زهير: لا ينبغي ذلك. و«ألا» في الأصل مركبة من همزة الاستفهام التوبيخي ولا النافية، فصارت أداة تحضيض. ويقال: استحيا واستحي كما هنا، بنقل حركة الياء إلى الحاء وحذفها، أي: لتستح منا الملوك، وتتوقى عقوبة التعرض لمحارمنا وأمواننا، لئلا تتوقى القتل منا لهم بقتلنا لبعضهم، أي لئلا ترجع إلا بذلك، أو لئلا ترجع إلا بذلك، أو لئلا تتوقى أخذ الدم بدل الدم. وروي «ألا يستحي منا المليك ويتقي» إلى آخره، وهو لغة في الملك، والمراد به ملك العراق.

ينظر: شرح اختيارات المفضل ص ٩٥١، ولسان العرب (بوا)، (مكس)، والكتاب ٩٥/٣، الدر المصون ١٦٢/١، فتح القدير ١٥٥/١.

(٢) قال محمود: «بقية الله ما يبقى لكم من الحلال... إلخ» قال أحمد: المنقول عن المعتزلة أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة، لا نهياً ولا أمراً، وقد جوز بعضهم خطابهم بالنهي. وهذه الآية تدل على أنهم مخاطبون في حال الكفر بشرط الإيمان، وقد قررها الزمخشري على ذلك.

(٣) عاد كلامه. قال: «فإن قلت بقية الله خير للكفرة لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس... إلخ» قال أحمد: وهذا أيضاً من إقرار الزمخشري للآية على ظاهرها، ومعنى السؤال: أذ الكفار إذا قدرنا =

قلت: لظهور فائدتها مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب، وخفاء فائدتها مع فقده؛ لانغماس صاحبها في غمرات الكفر، وفي ذلك استعظام للإيمان، وتبنيه على جلاله شأنه، ويجوز أن يراد: إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم، وأنصح به إياكم، ويجوز أن يراد: ما يبقى لكم عند الله من الطاعات خيراً<sup>(١)</sup> لكم؛ كقوله: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٤٦]، وإضافة البقية إلى الله من حيث إنها رزقه الذي يجوز أن يضاف إليه، وأما الحرام، فلا يضاف إلى الله ولا يسمى رزقاً<sup>(٢)</sup>، وإذا أريد بها الطاعة فكما تقول: طاعة الله، وقرئ: «تقية الله»، بالتاء، وهي تقواه، ومراقبته التي تصرف عن المعاصي والقبائح، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمَحْفِظٍ﴾: وما بعثت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها؛ وإنما بعثت مبلغاً ومنبهاً على الخير وناصحاً، وقد أعذرت حين أنذرت.

﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُوئُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧)

كان شعيب - عليه السلام - كثير الصلوات / ٣٣٨ ب، وكان قومه إذا رأوه يصلي، تغامزوا وتضاحكوا، فقصدهوا بقولهم؛ ﴿أَصْلُوئُكَ تَأْمُرُكَ﴾: السخرية والهزاء - والصلوة وإن جاز أن تكون أمرة على طريق المجاز، كما كانت ناهية في قوله: ﴿إِنَّكَ أَصْلُوئُكَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [المنكيات: ٤٥]، وأن يقال: إن الصلاة تأمر بالجميل والمعروف، كما يقال: تدعو إليه وتبعث عليه - إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز<sup>(٣)</sup>، وجعلوا الصلاة

= خطابهم بالفروع، انتفعوا باجتناب المنهيات في الدار الآخرة؛ لأن ثمرة الخلاف في مسألة خطاب الكفار إنما تظهر في الدار الآخرة، وإذا كانوا ينتفعون بذلك فلا معنى لاشتراط الإيمان والحال مع وجوده وعدمه في الانتفاع بالامتثال سواء. ومعنى الجواب: أن ظهور الانتفاع بالامتثال إنما يتحقق مع الإيمان، وأما مع الكفر فهم مخلدون في العذاب، فإنما تظهر الفائدة على خفاء في تحقيق ما من العذاب، والله الموفق.

(١) عاد كلامه. قال: «ويجوز أن يراد ما يبقى لكم من الطاعات عند الله... إلخ» قال أحمد: قد تقدم أن عقيدة أهل السنة: أن لا خالق ولا رازق إلا الله، إيماناً بقوله ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ عِندَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ وإذا كان الرزق عبارة عن كل ما يقيم به الخلق بنيتهم، لزم اندراج الحرام في هذا الإطلاق عقداً وحقيقة. وأما إطلاق القول بإضافته على الخصوص إلى الله تعالى، فأمر خارج عن الاعتقاد راجع إلى الاتباع، والله الموفق.

(٢) قوله: «ولا يسمى رزقاً» هذا مذهب المعتزلة وأما مذهب أهل السنة فالرزق ما ينتفع به ولو حراماً (ع).

(٣) قوله: «مساق الطنز» في الصحاح: الطنز السخرية. وطنز يطنز فهو طناز، وأظنه مولداً أو معرباً اهـ (ع).

أمره على سبيل التهكم بصلاته، وأرادوا أنّ هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته، وأنّ مثله لا يدعوك إليه داعي عقل، ولا يأمرك به أمر فطنة، فلم يبق إلا أن يأمرك به أمر هذيان ووسوسة شيطان، وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك، وعندهم أنها من باب الجنون، ومما يتولع به المجانين والموسوسون من بعض الأقوال والأفعال، ومعنى تأمرك: ﴿أَنْ تَتْرَكَ﴾: تأمرك بتكليف أن تترك<sup>(١)</sup>، ﴿مَا يَبْدُ أَبَاؤُنَا﴾: لحذف المضاف الذي هو التكليف، لأنّ الإنسان لا يؤمر بفعل غيره، وقرئ: ﴿أصلاتك﴾: بالتوحيد، وقرأ ابن أبي عبلة: «أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء»، بناء الخطاب فيهما، وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطيف والبخس، والافتناع بالحلال القليل من الحرام الكثير، وقيل: كان ينهاهم عن حذف الدراهم<sup>(٢)</sup> والدنانير وتقطيعها، وأرادوا بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْخَلِيفُ الرَّشِيدُ﴾: نسبته إلى غاية السفه والغبي، فعكسوا ليتهمموا به، كما يتهمك بالشحيح الذي لا يبضّ حجره<sup>(٣)</sup>، فيقال له: لو أبصرك حاتم لسجد لك، وقيل: معناه: إنك للمتواصف بالحلم والرشد في قومك، يعنون أنّ ما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به.

﴿قَالَ يَغْفِرُ أَرْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَلِكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

أُنِيبُ ﴿٣٨﴾

﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾ أي: من لدنه، ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾، وهو ما رزقه من النبوة والحكمة، وقيل: (رزقاً حسناً): حلالاً طيباً من غير بخس ولا تطفيف.

(١) قال محمود: «معناه تأمرك بتكليف أن تترك ما يعبد آباؤنا إلى قوله بناء الخطاب فيهما» قال أحمد: فعلى هذه القراءة يكون (أن تفعل) معطوفاً على أن تترك، وعلى المشهور: لا يجوز ذلك والله أعلم لاستحالة المعنى، فيتعين العطف فيها على (ما يعبد) كأنهم قالوا: أصلواتك تأمرك أن تترك عبادة آباؤنا أو معبود آباؤنا، على أنها مصدرية أو موصولة، ثم قالوا: أو أن تفعل، أي أو أن تترك فعلنا في أموالنا ما نشاء، هذه لطيفة فتنه لها، ولا حاجة إلى إضمار الزمخشري لمضاف تقديره: تأمرك بتكليف أن تترك، واحتجاجة لذلك بأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره إذا والمسألة فرع من فروع خلق الأفعال، ومع ذلك كله فتقدير المضاف في الآية متوجه ليس بناء على القراءة المذكورة، ولكن لأن عرف التخاطب في مثله يقتضي ذلك، والله أعلم.

(٢) قوله: «عن حذف الدراهم» الذي في الصحاح: حذف من شعري ومن ذنب الدابة، أي: أخذت اهـ (ع).

(٣) قوله: «لا يبض حجره» في الصحاح: بض الماء بضيضاً: سال قليلاً قليلاً. وفي المثل: ما يبض حجره، أي ما تندی صفاته (ع).

فإن قلت: أين جواب: (أرأيتم)، وما له لم يثبت كما أثبت في قصة نوح ولوط؟

قلت: جوابه محذوف؛ وإنما لم يثبت، لأن إثباته في القصتين دل على مكانه، ومعنى الكلام ينادي عليه، والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة واضحة، ويقين من ربي، وكنت نبياً على الحقيقة، أوصح لي ألا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي؟ والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك؟، يقال: خالفني فلان إلى كذا: إذا قصده وأنت مول عنه، وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده، ويلقأك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه؟ فيقول: خالفني إلى الماء، يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ كُفَّيْتُمْ عَنْهُ﴾: يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم/ ٣٣٩ التي نهيتكم عنها، لاستبد بها دونكم، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾: ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي، ونصيحتي، وأمرني بالمعروف، ونهيتني عن المنكر، ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾: ظرف، أي: مدة استطاعتي<sup>(١)</sup> للإصلاح، وما دمت متمكناً منه لا ألو فيه جهداً، أو بدل من الإصلاح، أي: المقدار الذي استطعته منه، ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف على قولك: إلا الإصلاح: إصلاح ما استطعت، أو مفعول له؛ كقوله: [من المتقارب]:

ضَعِيفُ النُّكَايَةِ أَعْدَاءُهُ ..... (٢)

أي: ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾:

(١) قال محمود: «ما استطعت ظرف أي مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكناً منه، ويجوز أن يكون على حذف مضاف تقديره إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت، أو يكون مفعولاً للمصدر كقوله: «ضعيف النكايه أعداءه» قال أحمد: والظاهر أنه ظرف. كهر في قوله ﴿فَالْتَقَى اللَّهُ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ وأما جعله مفعولاً للمصدر وقد عرف بالألف واللام فبعيد؛ لأن إعمال المصدر المعرف في المفعول الصريح ليس بذاك. قالوا: ولم يوجد في القرآن عاملاً في مفعول صريح ولا في غيره إلا في قوله ﴿لَا يُجِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالشُّوَبِ﴾ فأعمله في الجار والعدول عن إقفاء الإعراب إلى وجوهه وهي ممكنة عنيدة متعين خصوصاً في أفصح الكلام. والله أعلم.

(٢) ضعيف النكايه أعداءه يخال الفرار يراخي الأجل نكأ القرع نكأ بالهمز: جرحه بعد اندماله، ونكى العدو نكايه: قتله وجرحه. وأعداءه: مفعول النكايه. وعمل المصدر المقرون بأل كما هنا نادر. يخال: أي يظن الهرب من العدو يطيل الأجل من جنبه.

ينظر أوضح المسالك ٣/٣٠٨، وخزانة الأدب ٨/١٢٧، والدرر ٥/٢٥٢، وشرح أبيات سيبويه ١/٣٩٤، وشرح الأشموني ١/٣٣٣، وشرح التصريح ٢/٦٣، وشرح شذور الذهب ص ٤٩٦، وشرح شواهد الإيضاح ص ١٣٦، وشرح ابن عقيل ص ٤١١، وشرح المفصل لابن يعيش ٦/٥٩، ٦٤، والكتاب ١/١٩٢، والمقرب ١/١٣١، والمنصف ٣/٧١، وهمع الهوامع ٢/٩٣.

وما كوني موقفاً لإصابة الحق فيما آتي وأذر، ووقوعه موافقاً لرضا الله إلا بمعونته وتأييده، والمعنى: أنه استوفى ربه في إمضاء الأمر على سننه، وطلب منه التأييد والإظهار على عدوه، وفي ضمنه تهديد للكفار، وحسم لأطماعهم فيه.

﴿وَيَقُولُ لَا يُجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَأَسْتَفِرُّوْا رَيْبَكُمْ ثُمَّ تُؤْبَؤْا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَجِيمٌ وَدُوْدٌ ﴿٩٠﴾﴾

«جرم»: مثل كسب في تعديه إلى مفعول واحد، وإلى مفعولين تقول: جرم ذنباً وكسبه، وجرمته ذنباً وكسبته إياه؛ قال [من الكامل]:

جَرِمْتُ فَزَارَةَ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا (١)

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يُجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ أي: لا يكسبنكم شقاي إصابة العذاب، وقرأ ابن كثير بضم الياء، من أجرمته ذنباً، إذا جعلته جارماً له، أي: كاسباً، وهو منقول من جرم المتعدي إلى مفعول واحد، كما نقل: أكسبه المال، من كسب المال، وكما لا فرق بين كسبه مالاً وأكسبته إياه؛ فكذلك لا فرق بين جرمته ذنباً وأجرمته إياه، والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما، إلا أن المشهورة أفصح لفظاً، كما إن كسبته مالاً أفصح من أكسبته، والمراد بالفصاحة: أنه على السنة الفصحاء من العرب الموثوق بعريبتهم أدور، وهم له أكثر استعمالاً، وقرأ أبو حيوة، ورويت عن نافع: (مثل ما أصاب)، بالفتح؛ لإضافته إلى غير متمكن؛ كقوله [من البسيط]:

لَمْ يَمْنَعِ الشَّرْبُ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقْتُ (٢)

(١) ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا لزيادة بن أسماء. ويقال: جرم ذنباً إذا اكتسبه. وجرم النخل: قطعه. وجرمته كذا: إذا أكسبته إياه أو حملته عليه. يقول: طعنت ذلك الرجل الفزاري طعنة قتلت. «جرمت فزارة» أي حق لها بعدها الغضب، أو اكتسبت فزارة بعدها الغضب فقط، واشتهر الرفع عنهم؛ لكن قال الجوهري «فزارة» مفعول أول، أي: أحقتهم الغضب، أو أكسبتهم إياه، أو حملتهم على أن يغضبوا بعدها، فهو على إسقاط الخافض.

ينظر لسان العرب (جرم)، وله أو لعطية بن عفيف في خزائن الأدب ١٠/٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٨، وشرح أبيات سيويه ١٣٦/٢، ولرجل من فزارة في الكتاب ١٣٨/٣، وبلا نسبة في أدب الكتاب ص ٦٢، والاشتقاق ص ١٩٠، وجمهرة اللغة ص ٤٦٥، وجواهر الأدب ص ٣٥٥.

(٢) ثم ارعويت وقد طال الوقوف بنا فيها فصرت إلى وجناء شمالا  
تعطيتك مشياً وإرقالاً ودأدة إذا تسربلت الأكمام بالآل  
لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة فوق غصن ذات أوقال =

﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِّنكُمْ يَبْعِدُونَ﴾ يعني: أنهم أهلکوا في عهد قريب من عهدکم، فهم أقرب الهالکین منکم، أو لا یبعدون منکم في الکفر، والمساوی، وما یتحق به الهلاک. فإن قلت: ما لبعید لم یرد علی ما یقتضیه قوم من حملة علی لفظه أو معناه<sup>(١)</sup>؟ قلت: إما أن یراد: وما إهلاکهم ببعید، أو ما هم بشيء بعید أو بزمان أو مکان بعید، ویجوز أن یراد: ما لبعید وببعید، وقلیل وكثیر، بین المذکر والمؤنث؛ لورودها علی زنة المصادر التي هي: الصهیل، والنهیق، ونحوهما، ﴿رَجِمٌ وَدُوْدٌ﴾: عظیم الرحمة للتائبین، فاعل بهم ما یفعل البلیغ المودّة بمن یودّه، من الإحسان والإجمال.

﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَالْأَخَذْتُمُوهُ وَرَأَى كُمْ ظَهْرِيًّا

= لأبي قيس بن رفاعة يصف ناقته. وقوله: «فيها» أي في دار المحبوبة. والوجناء: الشديدة الصلبة. والشملال: الخفيفة السريعة. والإرقال والدأدة: نوعان من السير، وقد شبه استتار الآكام وهي الجبال الصغيرة بالآل، وهو السراب الذي يرى في الهاجرة أبيض يشبه الماء في جريانه على وجه الأرض، بالتسريل وهو لبس السراويل: أي الثياب على طريق التصريحة، ثم وصفها بحدة الفؤاد وهو محمود عندهم، أو بحنينها إلى وطنها، وعطفها لما سمعت صوت الحمامة. والشرب - بالكسر - النصب من الماء. وبالضم المصدر. والأوقال: جمع وقل كجبل وهي الحجارة، أو البقايا التي بقيت في جذع الشجرة بعد تقليم بعض أغصانها، بارزة يمكن الارتقاء عليها. يقول: لم يمنع نصيبها من الماء عنها، أو لم يمنعها من شربها الماء. ففيه قلب على الثاني وغير فاعل لأنه تضرع إليه العامل، وبني على الفتح لإضافته إلى مبنى، واستعار النطق لتفريد الحمامة على سبيل التصريحة، وكأنها كانت داخل الغصون فسمعت الناقه صوتها ولم ترها ففزعته. أو كانت على غصن من الشجرة فكان تفريدها مطرباً لذيذاً، فحنت الناقه إلى وطنها. وذات أوقال: وصف لغصن؛ لأنه جمع غصن كما قيل في فلك، المفرد والجمع باعتبار التغير التقديري. ويجوز أن يقرأ بإضافة غصن إلى ذات، والمعنى: غصن أرض أو شجرة ذات أوقال، لكن الأول أحسن في الوزن. وقد روي: في غصون ذات أوقال، أي: ذات قطع بارزة بعد التعليم، فتكون مشوهة المنظر توجب النفرة والوحشة، أو صاحبة أحجار، فتكون أنضر حيث ترى مخضرة وسط أرض قفرة، أو لتكون في غير محلها فتوجب حنين الناقه إلى محلها أو فزعها لغرابة ذلك. وقيل: إنه جمع «وقل» بالسكون، وهو شجر المقل. وقيل: يجوز أنه من وقل كوعد إذا صعد، أي ذات ارتفاعات. ينظر البيت في ديوانه ص (٨٥)، جمهرة اللغة ص (١٣١٦)، خزائن الأدب ٤٠٦/٣، ٤٠٧، الدرر ١٥٠/٣، ولأبي قيس بن رفاعة في شرح أبيات سيبويه ١٨٠/٢، شرح شواهد المغني ٤٥٨/١، شرح المفصل ٨٠/٣، الأدب ٥٣٢/٦، ٥٥٢، ٥٥٣، سر صناعة الإعراب ٥٠٧/٢، شرح التصريح ١٥/١، شرح المفصل لابن يعيش ٨١/٣، ١٣٥/٨، الكتاب ٣٢٩/٢، لسان العرب (نطق)، (وقل)، مغني اللبيب ١٥٩/١، همع الهوامع ٢١٩/١، الدرر المصون ١٢٧/٣.

(١) قوله: «على ما يقتضيه قوم من حملة» وذلك بأن يعامل معاملة المؤنث، نحو ﴿كَذَّبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ أو معاملة جمع الذكور، نحو ﴿إِذْ قَالَ لَمَّ لُّؤْمُرُ نُّوحٍ آلا تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾﴾ لأن الأول مقتضى حملة على لفظه، كما سيأتي في سورة الشعراء، من أن القوم مؤنثة وتصغيرها قوبمة، والثاني مفتضى =

إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمٍ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَائِكُمْ إِنِّي عَعِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ  
 مِنْ بَأْسِهِ عَذَابٌ يُعْزِيزُهُ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ  
 أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي  
 دِيَارِهِمْ جِثِيمٌ ﴿٩٤﴾ كَانَ لَوْ يَفْقَهُونَ فِيهَا إِلَّا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ نَعْمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴿

﴿مَا فَفَقَهُ﴾: ما نفهم، ﴿كثييراً مِمَّا نَقُولُ﴾؛ لأنهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم؛ رغبة  
 عنه، وكراهية له؛ كقوله/ ٣٣٩ب: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، أو كانوا  
 يفقهونه ولكنهم لم يقبلوه، فكانهم لم يفقهوه، وقالوا ذلك على وجه الاستهانة به، كما  
 يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعباً بحديثه: ما أدري ما تقول، أو جعلوا كلامه هدياناً  
 وتخليطاً، لا يفهم كثير منه، وكيف لا يفهم كلامه وهو خطيب الأنبياء، وقيل: كان  
 أُلغ، ﴿فِينَا ضَعِيفًا﴾: لا قوة لك، ولا عز فيما بيننا<sup>(١)</sup>، فلا تقدر على الامتناع منا إن  
 أردنا بك مكروهاً، وعن الحسن: (ضعيفاً): مهيناً، وقيل: (ضعيفاً): أعمى، وحمير  
 تسمى المكفوف: ضعيفاً، كما يسمى ضريراً، وليس بسديد؛ لأن (فينا): ياباه؛ ألا ترى  
 أنه لو قيل: إنا لنراك فينا أعمى، لم يكن كلاماً؛ لأن الأعمى، أعمى فيهم وفي غيرهم؛  
 ولذلك قللوا قومه؛ حيث جعلوهم رهطاً، والرهط: من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى  
 السبعة؛ وإنما قالوا: ولولاهم؛ احتراماً لهم، واعتداداً بهم؛ لأنهم كانوا على ملتهم، لا  
 خوفاً من شوكتهم وعزتهم، ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾: لقتلناك شر قتلة، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: لا  
 تعز علينا ولا تكرم، حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم؛ وإنما يعز علينا رهطك؛  
 لأنهم من أهل ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وقد دلّ إيلاء ضميره حرف النفي  
 على أن الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل، كأنه قيل: وما أنت علينا بعزير، بل رهطك  
 هم الأعزة علينا؛ ولذلك قال في جوابهم: ﴿أَرْقَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾، ولو قيل: وما  
 عززت علينا، لم يصح هذا الجواب.

فإن قلت: فالكلام واقع فيه، وفي رهطه، وأنهم الأعزة عليهم دونه، فكيف صح  
 قوله: ﴿أَرْقَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾؟

قلت: تهاونهم به - وهو نبي الله - تهاون بالله، فحين عز عليهم رهطه دونه، كان  
 رهطه أعز عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ يَطْعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾  
 [النساء: ٨٠]، ﴿وَأَعَزُّنَاكُمْ وَرَأَىٰ كُمْ ظَهْرِيًّا﴾: ونسيتموه، وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر

= حمله على معناه وهو ظاهر (ع).

(١) قال محمود: «معنى قولهم ضعيفاً، أي: لا قوة لك ولا عز فيما بيننا... إلخ» قال أحمد: وهذا  
 من محاسن نكته الدالة على أنه كان ملياً بالحذاقة في علم البيان والله المستعان.

لا يعبأ به، والظهريّ: منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب، ونظيره قولهم في النسبة إلى أمس: أمسي، ﴿يَمَا تَمَلُّونَ مُحِيطٌ﴾: قد أحاط بأعمالكم علماً، فلا يخفى عليه شيء منها، ﴿عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ﴾: لا تخلو المكانة من أن تكون بمعنى المكان، يقال: مكان ومكانة، ومقام ومقامة، أو تكون مصدرًا من مكن مكانة فهو مكين، والمعنى: اعملوا قازين على جهتكم التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي، أو اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين لها، ﴿إِنِّي عَمِلٌ﴾: على حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد وبمكنتي، ﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾: يجوز أن تكون (من): استفهامية، معلقة لفعل العلم عن عمله فيها؛ كأنه قيل: سوف تعلمون أينما يأتيه عذاب يخزيه، وأينما هو كاذب، وأن تكون/ ٣٤٠ أ موصولة قد عمل فيها، كأنه قيل: سوف تعلمون الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب.

فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعاها في: (سوف تعلمون)؟

قلت: إدخال الفاء: وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعاها: وصل خفي تقديرّي بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدّر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكاتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء، وتارة بالاستئناف؛ للفتن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو باب من أبواب علم البيان، تتكاثر محاسنه، ﴿وَأَرْتَقِيُوا﴾: وانتظروا العاقبة، وما أقول لكم: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي: منتظر، والرقيب بمعنى: الرقيب، من رقبه، كالضرب والصريم بمعنى: الضارب، والصارم، أو بمعنى: المراقب، كالعشير والنديم، أو بمعنى: المرتقب، كالفقير، والرفيع، بمعنى: المفتقر والمرتفع.

فإن قلت: قد ذكر عملهم على مكاتهم<sup>(١)</sup>، وعمله على مكانته، ثم أتبعه ذكر عاقبة

(١) قال محمود: «إن قلت قد ذكر عملهم على مكاتهم... إلخ» قال أحمد: والظاهر - والله أعلم - أن الكلامين جميعاً لهم، فالأول وهو قوله ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ مضمن ذكر جرمهم الذي يجازون به وهو الكذب، ويكون من باب عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد، كما تقول لمن تهده: ستعلم من يهان ومن يعاقب، وإنما يعني المخاطب في الكلامين، فإذا ثبت صرف الكلامين إليهم لم يخل ذلك من دلالة على ذكر عاقبته هو، لأن أحد الفريقين إذا كان مبطلاً فالآخر هو المحق قطعاً، فذكره لإحدى العاقبتين صريحاً يفهم ذكر الأخرى تعريضاً والتعريض كما علمت في كثير من مواضعه أبلغ وأوقع من التصريح، وهذا منه، والذي يدل على أن الكلامين لهما وأن عاقبة أمر شعيب لم تذكر، استغناء عنها بذكر عاقبتهم، كما بيانه في الآية التي في أول هذه السورة، وهي قوله تعالى ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ألا تراه كيف اكتفى بذلك عن أن يقول: ومن هو على خلاف ذلك، وكذلك قوله في سورة الأنعام ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَائِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ فذكر هناك أيضاً إحدى العاقبتين، لأن المراد بهذه العاقبة عاقبة الخير، =

العاملين منه ومنهم، فكان القياس أن يقول: من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق، حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إلى الجاحدين، ومن هو صادق إلى النبي المبعوث إليهم؟ قلت: القياس ما ذكرت، ولكنهم لما كانوا يدعون كاذباً قال: ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ يعني: في زعمكم ودعواكم؛ تجهيلاً لهم. فإن قلت: ما بال ساقتي قصة<sup>(١)</sup> عاد، وقصة مدين جاءتا بالواو، والساقتان الوسطيان بالفاء؟

قلت: قد وقعت الوسطيان بعد ذكر الوعد؛ وذلك قوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]، ﴿ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرٌ مَّكَذُوبٌ﴾ [هود: ٦٥]، فجيء بالفاء الذي هو للتسيب، كما تقول: وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت، وأما الأخريان: فلم تقعا بتلك المثابة؛ وإنما وقعتا مبتدأتين، فكان حقهما أن تعطفوا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة، الجائمتين، اللازم لمكانه لا يريم، كاللابد<sup>(٢)</sup>، يعني: أن جبريل صاح بهم صيحة، فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو قعصاً<sup>(٣)</sup>، ﴿كَأَنَّ لَمْ يَنْزَوْا﴾: كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين، البعد: بمعنى: البعد، وهو الهلاك، كالرشد بمعنى: الرشد؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿كَمَا بَعَدَتْ﴾؟ وقرأ السلمي: «بعدت»، بضم العين، والمعنى في البناءين واحد، وهو نقيض القرب، إلا أنهم أرادوا التفصلة بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره، فغيروا البناء، كما فرقوا بين ضمان الخير والشر، فقالوا: وعد وأوعد، وقراءة السلمي جاءت على الأصل اعتباراً لمعنى البعد من غير تخصيص، كما يقال: ذهب فلان ومضى، في معنى الموت، وقيل: معناه: بعداً لهم من رحمة الله كما بعدت ثمود منها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْأَوْرُدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَتَسَّ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

﴿آياتنا وسلطان مبين﴾ / ٣٤٠ب: فيه وجهان: أن يراد أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته، وأن يراد بالسلطان المبين: العصا؛ لأنها أبهرها، ﴿وَمَا أَمْرُ

= ومتى أطلقت فلا يعني إلا ذلك. كقوله ﴿وَالْمَقْبَةُ لِلْمُنْتَقِبِ﴾ واستغنى عن ذكر مقابلتها، والله أعلم. فتأمل هذا الفصل فإنه تحفة لمن همه نظم درر الكتاب العزيز، وضم بعضها إلى بعض، والله الموفق للصواب.

- (١) قوله: «ساقتي قصة» في الصحاح: ساقه الجيش مؤخره اهـ. ومثله ساقه القصة هنا (ع).
- (٢) قوله: «كاللابد» أي المتلبد اللاصق بالأرض، أفاده الصحاح (ع).
- (٣) قوله: «بحيث هو قعصاً» في الصحاح: يقال مات فلان قعصاً، إذا أصابته ضربة فمات مكانه (ع).

فَرَعَوْتَ بِرَشِيدٍ: تجهيل لمتبعيه؛ حيث شايعوه على أمره، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل؛ وذلك أنه ادعى الإلهية، وهو بشر مثلهم، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد، ومثله بمعزل من الإلهية ذاتاً وأفعالاً، فاتبعوه وسلموا له دعواه، وتتبعوا على طاعته، والأمر الرشيد: الذي فيه رشد، أي: وما في أمره رشد إنما هو غي صريح وضلال ظاهر مكشوف؛ وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم، لا من يضلهم ويغويهم، وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين في أمر موسى - عليه السلام - وعلموا أن معه الرشد والحق، ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط، ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أي: كما كان قدوة لهم في الضلال، كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه، ويجوز أن يريد بقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فَرَعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾: وما أمره بصالح حميد العاقبة، ويكون قوله: (يقدم قومه): تفسيراً لذلك وإيضاحاً، أي: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته، والرشد مستعمل في كل ما يحمد ويرتضي، كما استعمل الغي في كل ما يذم ويتسخط، ويقال: قدمه بمنى تقدمه، ومنه: قادمة الرحل، كما يقال: قدمه بمعنى تقدمه، ومنه مقدمة الجيش، وأقدم بمعنى تقدم. ومنه مقدم العين.

فإن قلت: هلا قيل: يقدم قومه فيوردهم؟ ولم جيء بلفظ الماضي؟

قلت: لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به؛ فكأنه قيل: يقدمهم فيوردهم النار لا محالة، و﴿أَلْوَرْدُ﴾: المورد، و﴿أَلْمَرُودُ﴾: الذي وردوه، شبه بالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء، وشبه أتباعه بالواردة، ثم قيل: بشس الورد الذي يردونه النار؛ لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنار ضده، ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ﴾: في هذه الدنيا، ﴿لَعْنَةً﴾ أي: يلعنون في الدنيا، ويلعنون في الآخرة، ﴿بِئْسَ الْرِفْدُ الْمَرْفُودُ﴾: رفدهم، أي: بشس العون المعان؛ وذلك أن اللعنة في الدنيا رقد للعذاب ومدد له، وقد رقدت باللعنة في الآخرة، وقيل: بشس العطاء المعطى.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١١٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَابِعٍ ﴿١١١﴾﴾

﴿ذَلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ﴾: خبر بعد خبر، أي: ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك، ﴿مِنْهَا﴾: الضمير للقرى، أي: بعضها باق وبعضها عافى الأثر، كالزرع القائم على ساقه والذي حصد.

فإن قلت: ما محل هذه الجملة؟

قلت: هي مستأنفة لا محل لها، ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾: بإهلاكنا/ ١٣٤١ إياهم، ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: بارتكاب ما به أهلكوا، ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾: فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله، ﴿يَدْعُونَ﴾: يعبدون، وهي حكاية حال ماضية، و﴿لَمَّا﴾: منصوب بما أغنت، ﴿أَمْرٌ رَبِّكَ﴾: عذابه ونقمته، ﴿تَتَّبِعُ﴾: تخسير، يقال: تب إذا خسرت، وتبته غيره، إذا أوقعه في الخسران.

﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١١٢)

محل الكاف: الرفع، تقديره: ومثل ذلك الأخذ، ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾: والنصب فيمن قرأ: «وكذلك أخذ ربك»، بلفظ الفعل، وقرئ: «إذ أخذ القرى»، ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾: حال من القرى، ﴿أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾: وجيع صعب على المأخوذ، وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بذنب يقتضيه، فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد، فيبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ

مَشْهُودٌ﴾ (١١٣)

﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى ما قص الله من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم، ﴿لَآيَةً لِّمَن خَافَ﴾: لعبرة له؛ لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالمجرمين في الدنيا، وما هو إلا أنموذج مما أعد لهم في الآخرة، فإذا رأى عظمه وشدته، اعتبر به عظم العذاب الموعود، فيكون له عبرة وعظة ولطفاً في زيادة التقوى، والخشية من الله تعالى، ونحوه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ (١٦) [النازعات: ٢٦]. ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى يوم القيامة؛ لأن عذاب الآخرة دل عليه، و﴿النَّاسُ﴾: رفع باسم المفعول الذي هو مجموع، كما يرفع بفعله إذا قلت: يجمع له الناس.

فإن قلت: لأي فائدة أوتر اسم المفعول على فعله؟<sup>(١)</sup>

قلت: لما في اسم المفعول من دلالة<sup>(٢)</sup> على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه يوم لا بد من أن يكون ميعاداً مضروباً لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت

(١) قال محمود: «إن قلت لم عدل عن الفعل إلى اسم المفعول... إلخ» قال أحمد: ولهذا السر ورد قوله تعالى ﴿إنا سخرننا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق، والطير محشورة﴾ فاستعمل الفعل حيث يليق به، واسم المفعول حيث يحسن استعماله أيضاً... إلخ.

(٢) قوله: «من دلالة» عبارة النسفي: دلالة (ع).

- أيضاً - لإسناد الجمع إلى الناس، وأنهم لا ينفكون منه؛ ونظيره قول المتهدد: إنك لمنهوب مالك محروب قومك، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ الْيَوْمَ الْجَمْعُ﴾ [التغابن: ٩] تعثر على صحة ما قلت لك، ومعنى يجمعون له: يجمعون لما فيه من الحساب، والثواب، والعقاب، ﴿يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾: مشهود فيه، فاتسع في الظرف<sup>(١)</sup> بإجرائه مجرى المفعول به؛ كقوله [من الطويل]:

وَيَوْمٍ شَهِدْنَا سُلَيْمًا وَعَامِرًا .....

أي: يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد، والمراد بالمشهود: الذي كثر شاهده، ومنه قولهم: لفلان مجلس مشهود، وطعام محضور، قال [من البسيط]:

..... فِي مَحْفَلٍ مِنْ نَوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودٍ<sup>(٢)</sup>

فإن قلت: فما منعك أن تجعل اليوم مشهوداً في نفسه دون أن تجعله مشهوداً فيه، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]؟

قلت: الغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام، فإن جعلته مشهوداً في نفسه، فسائر الأيام كذلك مشهودات كلها، ولكن يجعل مشهوداً فيه حتى يحصل / ٣٤١ب التميز كما تميز يوم الجمعة عن أيام الأسبوع بكونه مشهوداً فيه دونها، ولم يجز أن يكون مشهوداً في نفسه؛ لأن سائر أيام الأسبوع مثله يشهدا كل من يشهده؛ وكذلك قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: الشهر منتصب ظرفاً لا مفعولاً به، وكذلك الضمير في: (فليصمه)، والمعنى: فمن شهد منكم في الشهر فليصم فيه، يعني: فمن كان

(١) قال محمود: «المراد مشهود فيه فاتسع في الظرف... إلخ» قال أحمد: يكون المشهود الذي هو المفعول به مسكوتاً عنه مبهماً، ومن الإبهام ما يكون تخيماً، وهذا مكانه.

(٢) تقدم.

(٣) من للخصوم إذا جد الضجاج بهم  
ومشهد قد كفت الغائبين به  
فرجته بلسان غير ملتبس  
بعد ابن سعد ومن للضمير القود  
في محفل من نواصي القوم مشهود  
عند الحفاظ وقلب غير مزود

لأم قيس الضبية. وضج ضجيجاً وضجاجاً: صاح. وضج البعير من الحمل: تعب من ثقله، والضمير بالتشديد: جمع ضامر. وفرس أقود: طويل العنق. ورجل أقود: يقبل بوجهه ولا يشني. والقود: جمعه. ومشهد: عطف على الخصوم. ويجوز جره برب، أي مجلس كفت فيه الغائبين عنه بالتكلم عنهم بين محفل من رؤساء الناس وأشرفهم، فالنواصي: استعارة لهم. وفرجته، فككت كرتيه، وكشفت غمته بكلام واضح الدلالة صادر عن قلب مطمئن غير خائف عند الحفاظ، أي غير الخصوم ومحافظة كل منهم على رأيه أو المناضبة. ويقال: أحفظه إحفاظاً إذا أغضبه. ينظر: لسان العرب (نصو)، وتاج العروس (نصو)، وأساس البلاغة (نصو).

منكم مقيماً حاضراً لوطنه في شهر رمضان، فليصم فيه، ولو نصبته مفعولاً، فالمسافر والمقيم كلاهما يشهدان الشهر، لا يشهده المقيم، ويغيب عنه المسافر:

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴿١١٤﴾﴾

الأجل: يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهائها، فيقولون: انتهى الأجل، وبلغ الأجل آخره، ويقولون: حل الأجل، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤]، يراد: آخر مدة التأجيل، والعدّ إنما هو للمدة لا لغايتها ومنتهائها، فمعنى قوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴿١١٤﴾﴾: إلا لانتهاه مدة معدودة بحذف المضاف، وقرئ: «وما يؤخره بالياء».

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١١٥﴾﴾

قرئ: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾: بغير ياء، ونحوه قولهم: لا أدر، حكاه الخليل وسيبويه، وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل.

فإن قلت: فاعل يأتي ما هو؟

قلت: الله - عز وجل - كقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وتعضده قراءة: «وما يؤخره»، بالياء، وقوله: ﴿يَأْتِيهِمْ﴾، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اليوم؛ كقوله تعالى: ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾.

فإن قلت: بما انتصب الظرف؟

قلت: إما أن ينتصب بلا تكلم، وإما بإضمار «اذكر»، وإما بالانتهاه المحذوف في قوله: ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ﴾ أي: ينتهي الأجل يوم يأتي.

فإن قلت: فإذا جعلت الفاعل ضمير اليوم، فقد جعلت اليوم وقتاً لإتيان اليوم وحددت الشيء بنفسه.

قلت: المراد إتيان هوله وشدائده، ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾: لا تتكلم، وهو نظير قوله: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [النبا: ٢١].

فإن قلت: كيف يوفق بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجَدِّدٌ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥]، [٣٦].

قلت: ذلك يوم طويل له مواقف ومواطن، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفون عن الكلام، فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها: يختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم، وتشهد أرجلهم، ﴿فَمِنْهُمْ﴾ الضمير: لأهل

الموقف، ولم يذكروا؛ لأن ذلك معلوم، ولأن قوله: ﴿لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسًا﴾ يدل عليه، وقد مر ذكر الناس في قوله: ﴿يَجْمَعُونَ لَهُ النَّاسَ﴾ [هود: ١٠٣]، والشقي الذي وجبت له النار لإساءته، والسعيد الذي وجبت له الجنة لإحسانه.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَنِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٦٦﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ  
وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦٧﴾﴾

قراءة العامة بفتح الشين، وعن الحسن: (شقوا): بالضم، كما قرئ: (سعدوا)، والزفير: إخراج النفس، والشهيق: رده؛ قال الشماخ [من من الطويل]:  
بَعِيدٌ مَدَى التَّطْرِيبِ أَوَّلَ صَوْتِهِ زَفِيرٌ وَيَسْلُوهُ شَهِيقٌ مُحْشَرَجٌ<sup>(١)</sup>  
﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: فيه وجهان:

أحدهما: أن تراد سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد، والدليل على أن لها سموات وأرضاً. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٣٨]؛ وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]؛ ولأنه لا بد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلمهم: إما سماء يخلقها الله، أو يظلمهم العرش، وكل ما أظلك فهو سماء.

والثاني: أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع، كقول العرب: ما دام تعار، وما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأييد.

فإن قلت: فما معنى: الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، وقد ثبت خلود أهل الجنة والنار في الأبد من غير استثناء؟

قلت: هو استثناء من الخلود في عذاب النار، ومن الخلود في نعيم الجنة؛ وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزهمير بأنواع من العذاب سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم وخسوه لهم وإهانته إياهم، وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعاً منهم، وهو رضوان الله، كما قال: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ﴿وَمَسْكَنٍ ظِلِّبَةً فِي جَنَّتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] ولهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو، فهو المراد بالاستثناء، والدليل عليه

(١) للشماخ يصف حمار وحشي. والمدى: المسافة والغاية. والتطريب: ترديد الصوت وترخيجه. والزفير: إخراج النفس بشدة. والمحشرج اسم مفعول: الصوت الذي يردده في حلقة وصدوره.

قوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ ومعنى قوله في مقابلته: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب، كما يعطى أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له، فتأمل؛ فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً، ولا يخدعك عنه قول المجبرة<sup>(١)</sup>، إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم، ويسجل بافترائهم، وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض الثواب<sup>(٢)</sup>، عن عبد الله بن عمرو بن العاص: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد (٧٦٧)؛ وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً، وقد بلغني أن من الضلال من اغترّ بهذا الحديث، فاعتقد أن الكفار لا يخلدون في النار، وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المبين - زادنا الله هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه - وتنبهاً على أن نعقل عنه، ولئن صح هذا عن ابن العاص، فمعناه: أنهم يخرجون من حرّ النار إلى برد الزمهرير؛ فذلك خلّو جهنم وصفق أبوابها، وأقول: ما كان لابن عمرو في سيفيه، ومقاتلته بهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث.

٧٦٧ - أخرجه البزار، كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (١٤٨/٢) من طريق الطيالسي ثنا شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن عمرو بن العاص موقوفاً، وقد ورد هذا مرفوعاً من حديث أنس.

أخرجه ابن عدي في «الكامل»؛ كما في «تخريج الكشاف» (١٤٨/٢ - ١٤٩) من طريق العلاء بن زيد الثقفي عن أنس مرفوعاً. وأعله بالعلاء بن زيد وقال: هو منكر الحديث. قال الحافظ في تخريج الكشاف:

الحديث أخرجه البزار قال: حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود حدثنا شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: «يأتي على النار زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد. يعني من الموحدين»، كذا فيه ورجاله ثقات. والتفسير لا أدري ممن هو، وهو أولى من تفسير المصنف، ويؤيده ما رواه ابن عدي عن أنس - رضي الله عنه - مرفوعاً: «ليأتين على جهنم يوم تصفق أبوابها، ما فيها من أمة محمد أحد»، وفي الباب عن أبي أمامة رفعه: «يأتي على جهنم يوماً ما فيها من بني آدم أحد، تخفق أبوابها، يعني من الموحدين»، وأما الحديث الذي أخرجه الحارث بن أبي أمامة في مسنده من طريق الحسن عن عمرو رفعه: «إن جهنم تخلو حتى ينبت فيها الجرجير»، فهو منقطع. ومراسيل الحسن عندهم واهية؛ لأنه كان يأخذ من كل أحد. فإن كان محفوظاً فعلى التأويل الأول. والله أعلم. انتهى.

- (١) قوله: «ولا يخدعك عنه قول المجبرة» يريد أهل السنة. أما المعتزلة فيقولون: فاعل الكبيرة واسطة بين المؤمن والكافر وخلوده في النار أبدي، وتحقيق بطلانه في علم التوحيد (ع).
- (٢) قوله: «لما روى لهم بعض الثواب» في الصحاح: إن بني فلان لناينة شر. والثواب من الأحداث الأعمار (ع).

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴿١١٨﴾ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ ﴿١١٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ ﴿١١٩﴾ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١١٩﴾ ﴾

﴿غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾: غير مقطوع، / ٣٤٢ب ولكنه ممتد إلى غير نهاية؛ كقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٥]. لما قص قصص عبدة الأوثان، وذكر ما أحل بهم من نعمة، وما أعد لهم من عذابه، قال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ﴾ يريد: أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت بين الحالين، وقد بلغك ما نزل بابائهم فسينزلن بهم مثله، وهو استئناف معناه تعليل النهي عن المرية، و«ما»: في مما، وكما: يجوز أن تكون مصدرية وموصولة، أي: من عبادتهم، وكعبادتهم، أو مما يعبدون من الأوثان، ومثل ما يعبدون منها، ﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيْبُهُمْ﴾ أي: حظهم من العذاب<sup>(١)</sup>، كما وفينا آباءهم أنصباهم.

فإن قلت: كيف نصب: ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ حالاً عن النصب الموفى؟ قلت: يجوز أن يوفى وهو ناقص، ويوفى وهو كامل؛ ألا تراك تقول: وفيته شطر حقه، وثلت حقه، وحقه كاملاً وناقصاً.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنتَهُمْ ﴿١٢٠﴾ لَفِي شَكِّ مِّنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾: آمن به قوم وكفر به قوم، كما اختلف في القرآن، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ يعني: كلمة الإنظار إلى يوم القيامة، ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: بين قوم موسى أو قومك، وهذه من جملة التسلية، أيضاً.

﴿وَإِن كَلَّمَا لِيُوفِيَنَّهُم رَّبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٢١﴾﴾

(١) قال محمود: «أي حظهم من العذاب، وإنما نصب غير منقوص حالاً من النصب الموفى، لأنه يجوز أن يوفى وهو ناقص ويوفى وهو كامل. ألا تراك تقول: وفيته شطر حقه وحقه كاملاً» قال أحمد: وهم والله أعلم، فإن التوفية تستلزم عدم نقصان الموفى كاملاً كان أو ناقصاً، فقولك: وفيته نصف حقه يستلزم عدم نقصانه، فما وجه انتصابه حالاً عنه؟ والأوجه أن يقال: استعملت التوفية بمعنى الإعطاء، كما استعمل التوفى بمعنى الأخذ. ومن قال: أعطيت فلاناً حقه. كان جديراً أن يؤكد بقوله: «غير منقوص» والله أعلم.

﴿وَإِنَّ كَلَامًا﴾: التنوين عوض من المضاف إليه، يعني: وإن كلهم، وإن جميع المختلفين فيه، ﴿لِيُؤَيِّنَهُمْ﴾: جواب قسم محذوف، واللام في (لما): موطئة للقسم، و(ما): مزيدة، والمعنى: وإن جميعهم والله ليؤفينهم، ﴿رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ﴾: من حسن وقبيح وإيمان وجحود، وقرئ: وإن كلا بالتخفيف على إعمال المخففة عمل الثقيلة؛ اعتباراً لأصلها الذي هو التثقيل، وقرأ أبي: «وإن كل لما ليؤفينهم»، على أن إن نافية، ولما بمعنى: إلا، وقراءة عبد الله مفسرة لها، وإن كل إلا ليؤفينهم، وقرأ الزهري وسليمان بن أرقم: «وإن كلا لما ليؤفينهم»، بالتنوين؛ كقوله: ﴿أَكْثَلًا لَمَّا﴾ [الفجر: ١٩] والمعنى: وإن كلا ملمومين، بمعنى: مجموعين؛ كأنه قيل: وإن كلا جميعاً؛ كقوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣].

﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْفَرُوا إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ﴾: فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادة الحق، غير عادل عنها، ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾: معطوف على المستتر في استقم؛ وإنما جاز العطف عليه ولم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه، والمعنى: فاستقم أنت، وليستقم من تاب على الكفر، وأمن معك، ﴿وَلَا تَطْفَرُوا﴾: ولا تخرجوا عن حدود الله، ﴿إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: عالم فهو مجازيكم به، فاتقوه، وعن ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه / ٣٤٣ من هذه الآية، ولهذا قال: «شيتني هود والواقعة وأخواتهما» (٧٦٨). وروي أن أصحابه قالوا له: لقد أسرع فيك الشيب، فقال:

٧٦٨ - تفرد به الترمذي (٣٢٩٧) دون أصحاب الكتب الستة، وأخرجه الحاكم (٤٧٦/٢)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وقد توسع الدارقطني في «العلل» (١٩٣/١) - (٢١١) في الكلام على هذا الحديث فليراجع. قال الحافظ:

وفي الترمذي من حديث شيبان عن أبي إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: «يا رسول الله، قد شبت، قال: قد شيتني هود والواقعة والمرسلات، وعم يتساءلون. وإذا الشمس كورت» وقال: حسن غريب. وأخرجه البزار من هذا الوجه. وقال: اختلف فيه على أبي إسحاق، فقال شيبان كذا. وقال علي بن صالح: عن أبي إسحاق عن أبي حجية قال: وقال زكريا عن أبي إسحاق عن مسروق أن أبا بكر قال: وأطال الدارقطني في ذكر علله واختلاف طرقه في أوائل كتاب العلل - ورواه البيهقي في الدلائل من رواية عطية بن سعيد قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشيب. فقال: شيتني هود وأخواتها: الواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت، وأخرجه ابن سعد وابن عدي من رواية يزيد الرقاشي عن أنس. وفيه: «الواقعة، والقارة، وسأل، وإذا الشمس كورت». انتهى.

«شَيْبَتِي هُوْدُ» (٧٦٩) وعن بعضهم: رأيت رسول الله ﷺ في النوم، فقلت له: روي عنك أنك قلت: شيبتي هود، فقال: «نعم»، فقلت: ما الذي شيبك منها؟ أفضص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: «لا»، ولكن قوله ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ﴾. وعن جعفر الصادق - رضي الله عنه - (فاستقم كما أمرت)، قال: افتقر إلى الله بصحة العزم.

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ نَسُوا لَمْ يَأْتُوا بِالْحُكْمِ﴾ (١١٧)

قري: «ولا تركنوا»، بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء، وعن أبي عمرو: بكسر التاء، وفتح الكاف، على لغة تميم في كسرهم حروف المضارعة إلا الياء في كل ما كان من باب علم يعلم؛ ونحوه قراءة من قرأ: (فتمسكم النار): بكسر التاء، وقرأ ابن أبي عبيدة: «ولا تركنوا»، على البناء للمفعول، من أركنه إذا أماله، والنهي متناول للانحطاط في هواهم، والانقطاع إليهم، ومصاحبيتهم ومجالستهم، وزيارتهم، ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيي بزيمهم، ومدّ العين إلى زهرتهم، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم؛ وتأمل قوله: (ولا تركنوا): فإن الركون هو الميل اليسير، وقوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: إلى الذين وجد منهم الظلم، ولم يقل: إلى الظالمين، وحكي أن الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم، فكيف بالظالم؟. وعن الحسن - رحمه الله - : جعل الله الدين بين لادين: ﴿وَلَا تَطَعُوا﴾ [طه: ٨١]، ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾، ولما خالط الزهري السلاطين، كتب إليه أخ له في الدين: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك: أصبحت شيخاً كبيراً، وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء؛ قال الله سبحانه: ﴿لَتُنَبِّئَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، واعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت: أنك أنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤدّ حقاً، ولم يترك باطلاً، حين أدناك اتخدوك قطباً تدور عليك رحي باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلاماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يُدخلون الشك بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك<sup>(١)</sup> من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا

٧٦٩ - ينظر الحديث السابق.

(١) قوله: «وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك» لعل هنا سقطاً تقديره: في جنب ما أعطوك، وما أقل ما أصلحو لك في جنب ما أفسدوا... إلخ» (ع).

الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهُورَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ [مريم: ٥٩]، فإنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك فقد دخله سقم، وهيب زارك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في / ٣٤٣ ب السماء، والسلام.

وقال سفيان: في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك، وعن الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً، وعن محمد بن مسلمة: الذباب على العذرة، أحسن من قارئ على باب هؤلاء، وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا لظَالِمٍ بِالْبَقَاءِ، فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصِيَ اللَّهَ فِي أَرْضِهِ» (٧٧٠). ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا، فقيل له: يموت؟ فقال: دعه يموت، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾: حال من قوله: (فتمسككم) أي: فتمسككم النار وأنتم على هذه الحال، ومعناه: وما لكم من دون الله من أنصار يقدرون على منعكم من عذابه، لا يقدر على منعكم منه غيره، ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾: ثم لا ينصركم هو؛ لأنه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم.

فإن قلت: فما معنى ثم؟

قلت: معناها: الاستبعاد؛ لأن النصره من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له.

﴿وَأَقْرَبُ الصَّلَاةِ طَرَفُ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ أَلْسِنَاتٍ ذَلِكَ ذِكْرِي﴾

لِلذِّكْرِ ﴿١١٤﴾

﴿طَرَفُ النَّهَارِ﴾: غدوة وعشية، ﴿وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ﴾: وساعات من الليل، وهي ساعاته القريبة من آخر النهار، من أزلفه إذا قربه وازدلف إليه، وصلاة الغدوة: الفجر، وصلاة العشية: الظهر والعصر؛ لأن ما بعد الزوال عشية، وصلاة الزلف: المغرب والعشاء،

٧٧٠ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٥١/٢): غريب مرفوعاً، وذكره الغزالي كذلك مرفوعاً في موضعين من كتابه إحياء علوم الدين. أ.هـ. والحديث أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٧/ ٥٣ - ٥٤) رقم (٩٤٣٢) عن عبد الله بن عمر الرقي عن يونس بن عبيد سمعت الحسن يقول: «من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يعصى الله في أرضه». وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٤٦/٧) من قول سفيان الثوري، في ترجمته فذكره. وذكره الغزالي في إحياء علوم الدين: (٨٧/٢)، (١٤٤/٢) مرفوعاً به. قال الحافظ: قد رواه البيهقي في السادس والستين من الشعب من رواية يونس بن عبد عن الحسن من قوله. وذكره أبو نعيم في الحلية من قول سفيان الثوري. انتهى.

وانتصاب طرفي النهار على الظرف؛ لأنهما مضافان إلى الوقت؛ كقولك: أقمت عنده جميع النهار، وأتيته نصف النهار، وأوله، وآخره، تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه؛ ونحوه: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠]، وقرئ: «وَزُلْفًا»؛ بضميتين، «وَزُلْفًا». بسكون اللام، «وزلفى»: بوزن قري، فالزلف: جمع زلفة، كظلم في ظلمة، والزلف بالسكون: نحو بسرة ويسر، والزلف بضميتين نحو: بسر في بسر، والزلفى بمعنى: الزلفة، كما أن القريبى بمعنى القربة: وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل، وقيل: «وزلفا من الليل»: وقرباً من الليل، وحقها على هذا التفسير أن تعطف على الصلاة، أي: أقم الصلاة طرفي النهار، وأقم زلفاً من الليل، على معنى: وأقم صلاة تتقرب بها إلى الله - عز وجل - في بعض الليل، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ﴾: فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد تكفير الصغائر بالطاعات، وفي الحديث: «إِنَّ الصَّلَاةَ إِلَى الصَّلَاةِ كَفَّارَةٌ مَا بَيْنَهُمَا مَا اجْتَنِبْتَ الْكَبَائِرَ» (٧٧١).

والثاني: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ»: بأن يكن لطفاً في تركها؛ كقوله: ﴿إِنَّكَ أَلْصَلَاةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقيل: نزلت في أبي اليسر عمرو ابن غزية الأنصاري كان يبيع التمر فأتته امرأة فأعجبته، فقال لها: إن في البيت أجود من هذا التمر، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم، فأتى رسول الله ﷺ / ٣٤٤ فأخبره بما فعل، فقال ﷺ «أَنْتَظِرُ أَمْرَ رَبِّي، فَلَمَّا صَلَّى صَلَاةَ الْعَصْرِ، نَزَلَتْ، فَقَالَ: نَعَمْ، أَذْهَبُ؛ فَإِنَّهَا كَفَّارَةٌ لِمَا عَمِلْتَ» ح، وروي أنه أتى أبا بكر فأخبره، فقال: استر على نفسك وتب إلى الله، فأتى عمر - رضي الله عنه - فقال له مثل ذلك، ثم أتى رسول الله ﷺ فنزلت، فقال عمر: أهدأ له خاصة أم للناس عامة؟ فقال: بل

٧٧١ - أخرجه مسلم (أبي) [٢/٢٥]: كتاب الطهارة: باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ... ، حديث (٢٣٣/١٤). والترمذي (٢١٤) وأخرجه ابن ماجه (٣٤٥/١): كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب في فضل الجمعة، حديث (١٠٨٦).

وابن خزيمة (١٦٢/١): كتاب الصلاة: باب ذكر الدليل على أن الصلوات الخمس إنما تكفر صغائر الذنوب دون كبائرها، حديث (٣١٤). و(١٥٨/٣): في جماع أبواب الأذان والخطبة في الجمعة: باب ذكر الخبر المفسر للأخبار المجملة التي ذكرتها في الأبواب المتقدمة، حديث (١٨١٤).

وأخرجه أحمد (٤٨٤/٢).

قال الحافظ: أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة رفعه: «الصلاة المكتوبة إلى الصلاة المكتوبة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر». انتهى.

للناس عامة، وروي أن رسول الله ﷺ قال له: تَوَضَّأَ وَضُوءًا حَسَنًا وَصَلَّ رُكْعَتَيْنِ»، ﴿إِنَّ  
الْحَسَنَاتِ يَذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (٧٧٢)، ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى قوله: ﴿فَأَسْتَيْمُ﴾، فما بعده:

٧٧٢ - أخرجه الترمذي (٢٩٢/٥): كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة هود، حديث (٣١١٥)، والنسائي  
في تفسيره: (٥٩٤/١)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره وأبو اليسر هو كعب بن عمرو.  
قال: وروى شريك عن عثمان عن عبد الله هذا الحديث مثل رواية قيس بن الربيع. وأخرجه ابن  
جرير الطبري في تفسيره (١٣٤/٧) رقم (١٨٦٩٧ - ١٨٦٩٨)، والطبراني في الكبير (١٦٥/١٩)  
رقم (٣٧١): كلهم من حديث قيس بن الربيع عن عثمان بن عبد الله بن موهب عن موسى بن  
طلحة عن أبي اليسر. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٣٨/٣)، وزاد نسبه للبخاري وابن مردويه  
عن أبي اليسر به. وللحديث شاهد من حديث ابن مسعود: أخرجه البخاري (١٨٩/٢): كتاب  
مواقيت الصلاة باب الصلاة كفارة، حديث (٥٢٦) و(٢٦٠/٩): كتاب التفسير، باب: ﴿وأقم  
الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ حديث  
(٤٦٨٧)، وذكره تعليقاً في ترجمة باب (٢٦) من كتاب الحدود (٩٣/١٤)، ومسلم (٩١/٩ - ٩٢ -  
النووي): كتاب التوبة باب قوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ حديث (٣٩ - ٤٠ -  
٢٧٦٣/٤١)، والترمذي (٢٩١/٥): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة هود، رقم (٣١١٤)،  
وابن ماجه (٤٤٧/١): كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء أن الصلاة كفارة، رقم (١٣٩٨)  
و(١٤٢١/٢): كتاب الزهد: باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥٤)، والطبري في تفسيره (١٣٢/٧) رقم  
(١٨٦٨٩).

كلهم من طريق سليمان التيمي عن أبي عثمان عن ابن مسعود به.  
وأخرجه الطبري في تفسيره (١٣١/٧) رقم (١٨٦٨١ - ١٨٦٨٢) من طريق سماك عن إبراهيم عن  
علقمة والأسود عن عبد الله بن مسعود به. وله شاهد أيضاً من حديث معاذ بن جبل: أخرجه  
الدارقطني في السنن (١٣٤/١): كتاب الطهارة باب صفة ما ينقض الوضوء، وما روي في الملامسة  
والقبلة، والبيهقي في «سننه الكبرى» (١٢٥/١)، والحاكم في «المستدرک»: (١٣٥/١) وسكت  
عنه، والواحدي في تفسيره: (٥٩٤/٢)، والطبري في تفسيره (١٣٣/٧) رقم (١٨٦٩٥): كلهم من  
طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل به.  
وذكره السيوطي في الدر المنثور: (٦٣٨/٣) وزاد نسبه إلى أحمد والترمذي والنسائي وأبي الشيخ  
وابن مردويه عن معاذ بن جبل نحوه.

قال الحافظ:

كان في الأصل أبو اليسر عمرو بن غزية وهو غلظ. وإنما هو أبو اليسر كعب بن عمرو. وكذا هو  
في كتب أسماء الصحابة. وإنما تبع المصنف الثعلبي فإنه قال: كذلك نزلت في عمرو بن غزية  
الأنصاري. والحديث عند الترمذي والنسائي والبخاري والطبري من رواية عثمان بن عبد الله  
ابن موهب عن موسى بن طلحة بن أبي اليسر بن عمرو قال: أنتي امرأة بتناج تمرأ - فقلت لها: في  
البيت تمر أطيب من هذا فدخلت معي في البيت. فأهويت إليها فقبلتها. فقالت: اتق الله. فأنتيت أبا  
بكر فذكرت ذلك له: فقال استر علي نفسك وتب. فأنتيت عمر فقال مثل ذلك. فأنتيت النبي ﷺ  
فذكرت ذلك له فأطرق طويلاً حتى أوحى إليه: (أقم الصلاة... الآية) قال ابن أبي اليسر: أنتيته  
فقرأها علي. فقال أصحابه: يا رسول الله، ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ فقال: بل للناس عامة. =

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥)

ثم كثر إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتنبيه على مكان الصبر ومحلّه؛ كأنه قال: وعليك بما هو أهمّ مما ذكرت به وأحقّ بالتوصية، وهو الصبر على امثال ما أمرت به، والانتهاه عما نهيت عنه، فلا يتم شيء منه إلا به، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: جاء بما هو مشتمل على الاستقامة، وإقامة الصلوات، والانتهاه عن الطغيان، والركون إلى الظالمين، والصبر، وغير ذلك من الحسنات.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَأَتَّبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١١٦)

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾: فهلا كان، وقد حكوا عن الخليل: كل: «لولا» في القرآن، فمعناها: «هلا»، إلا التي في الصفات، وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصفات، ﴿لَوْلَا أَنْ تَذَكَّرُ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَتَبَّذَ بِالْعُرَى﴾ [القلم: ٤٩]، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ﴾ [الفتح: ٢٥]، ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٧٤] ﴿أُولُوا بَقِيَّةً﴾: أولو فضل وخير، وسمي الفضل والجودة ببقية؛ لأن الرجل يستبقي مما يخرج منه أجوده وأفضله، فصار مثلاً في الجودة والفضل، ويقال: فلان من بقية القوم، أي: من خيارهم؛ وبه فسر بيئ الحماسة [من البسيط]:

إِنْ تُذَنِّبُوا ثُمَّ يَأْتِينِي بَقِيَّتُكُمْ ..... (١)

= وفي رواية لأحمد فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، أله وحده أم للناس كافة؟ وللدارقطني والحاكم والبيهقي من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلي عن معاذ أنه كان قاعداً عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له، فلم يدع شيئاً يأتيه الرجل من امرأته إلا أصاب منها غير أنه لم يجامعها. فقال له النبي ﷺ تَوْضُأً وَضَوْأً حَسَنًا ثُمَّ صَلِّ. فأنزل الله تعالى الآية. فقال معاذ: أهي له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: بل للمسلمين عامة. وأصل الحديث في الصحيحين عن ابن مسعود، وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها دون أن أمسها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت. فقال له عمر: لقد مشترك الله لو سترت على نفسك، ولم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً فانطلق الرجل فاتبعه النبي ﷺ رجلاً. فدعاه فتلا عليه: ﴿أقم الصلاة طرفي النهار... الآية﴾، فقال رجل من القوم: يا رسول الله أله خاصة أم للناس؟ فقال: بل للناس كافة. انتهى.

(١) بأيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصوت؟ =

ومنه قولهم: في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا، ويجوز أن تكون البقية بمعنى: البقوى، كالتقية بمعنى: التقوى، أي: فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه، وقرئ: «أولو بقية»: بوزن لقية، من بقاء يقيه إذا راقبه وانتظره ومنه: «بقينا رسول الله ﷺ (٧٧٣)، والبقية المرة من مصدره، والمعنى: فلو كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله، كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: استثناء منقطع، معناه: ولكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهي، و(من) في: ﴿مَمَّنْ أُنجِنَا﴾: حقها أن تكون للبيان، لا للتبويض؛ لأن النجاة إنما هي للناهين وحدهم؛ بدليل قوله تعالى: ﴿أُنجِنَا الَّذِينَ يَتُوبُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأعراف: ١٦٥].

فإن قلت: هل لوقوع هذا/ ٣٤٤ ب الاستثناء متصلاً وجه يحمل عليه؟

قلت: إن جعلته متصلاً على ما عليه ظاهر الكلام، كان المعنى فاسداً؛ لأنه يكون تحضيضاً لأولي البقية على النهي عن الفساد، إلا للقليل من الناجين منهم كما تقول: هلا قرأ قومك القرآن إلا الصالحاء منهم، تريد استثناء الصالحاء من المحضضين على قراءة القرآن، وإن قلت في تحضيضهم على النهي عن الفساد معنى نفية عنهم، فكأنه قيل: ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلاً، كان استثناء متصلاً ومعنى صحيحاً، وكان انتصابه على أصل الاستثناء، وإن كان الأفصح أن يرفع على البدل، ﴿وَأَتَّبَعْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا﴾

٧٧٣ - أخرجه أبو داود (١/١١٤): كتاب الصلاة: باب في وقت العشاء الآخرة، حديث (٤٢١) من طريق عاصم بن حميد السكوني عن معاذ بن جبل به.  
قال الحافظ: أخرجه أبو داود من حديث معاذ قال «لقينا رسول الله ﷺ في صلاة العتمة فتأخر حتى ظن الظان أنه ليس بخارج... الحديث» انتهى.

وقل لهم: بادروا بالعدر والتمسوا  
فولاً يبرئكم إنني أنا الموت  
إن تذبذبوا ثم يأتيني بقيتكم  
فما عليّ بذنوب عندكم فوت  
لروشيد بن كثير الطائي. وزجاء - بالتخفيف والتشديد - وأزجاء: ساقه. وأراد بالصوت: الصيحة أو القصة التي بلغته عنه، وأخبر عن نفسه بالموت مبالغة. وبقية القوم: خيارهم، وتأتي مصدراً بمعنى البقوى، كالتقية بمعنى التقوى. والمعنى على الأول: إن تذبذبوا ثم يأتيني أمثالكم يعتذرون عنكم فلا فوت، ولا بأس عليّ بسبب ذنب غيركم. وعلى الثاني: ثم يأتيني منكم ذو الإبقاء على أنفسهم، يقولون: لا تهلكتنا بما فعل السفهاء منا، فكذلك. ويجوز أن المعنى: إن تجتمعوا عليّ للمحاربة أو للاعتذار، فلا فتوتني مواخذتكم بل لا بد منها. وإثبات الياء في «يأتيني» للإشباع، لكن الأخير غير مناسب لقوله: «بادروا بالعدر».

ينظر: لسان العرب (بقي)، والمحتسب (١/١٩٦).

فيه ﴿: أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعقدوا همهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التمتع والتترف، من حب الرياسة والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك ونبذوه وراء ظهورهم، وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي، «واتبع الذين ظلموا»، يعني: واتبعوا جزاء ما أترفوا فيه، ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة: أنهم اتبعوا جزاء إترافهم، وهذا معنى قوي لتقدم الإنجاء، كأنه قيل: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم وهلك السائر.

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؟

قلت: إن كان معناه: واتبعوا: الشهوات، كان معطوفاً على مضمراً؛ لأن المعنى: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد، واتبع الذين ظلموا شهواتهم، فهو عطف على نهوا، وإن كان معناه: واتبعوا جزاء الإتراف، فالواو للحال، كأنه قيل: أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم.

فإن قلت: فقوله: ﴿وَكَاثِرًا مُّجْرِمِينَ﴾؟

قلت: على أترفوا، أي: اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين؛ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام، أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر، أو على اتبعوا، أي: اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك، ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكماً عليهم بأنهم قوم مجرمون.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ﴾ بمعنى: صح واستقام، واللام لتأكيد النفي، و﴿يُظْلِمُ﴾: حال من الفاعل، والمعنى: واستحال في الحكمة أن يهلك الله القرى ظالماً لها، ﴿وَأَهْلِهَا﴾: قوم، ﴿مُصْلِحُونَ﴾: تنزيهاً لذاته عن الظلم، وإيداناً بأن إهلاك المصلحين من الظلم، وقيل: الظلم الشرك، ومعناه: أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون، يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمنون إلى شركهم فساداً آخر.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ ۗ وَلِذَلِكَ

خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني: لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمة واحدة، أي: ملة واحدة، وهي ملة الإسلام؛ كقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾، وهذا الكلام يتضمن/ ٣٤٥ نفي الاضطرار، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه

مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل، فاختلَفوا؛ فلذلك قال: ﴿وَلَا يَرْأُونَ تَحْتَلِفِينَ إِلَّا مِنْ رَجْمِ رَبِّكَ﴾ إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه، ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأول وتضمنه، يعني: ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره، ﴿وَوَسَّمتْ كِيمَةً رَبِّكَ﴾، وهي قوله للملائكة: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾؛ لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٢) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢٣﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٤﴾

﴿وَكَلَّا﴾: التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل: وكل نبأ، ﴿نَقْصُ عَلَيْكَ﴾، ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾: بيان لكل، ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾: بدل من كلا، ويجوز أن يكون المعنى: كل اقتصاص نقص عليك، على معنى: وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك، يعني: على الأساليب المختلفة، (وما ثبت به): مفعول نقص، ومعنى تثبيت فؤاده: زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه؛ لأن تكرار الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم، ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة، أو في هذه الأنباء المقتصة فيها ما هو حق، ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: من أهل مكة وغيرهم: ﴿أَعْمَلُوا﴾: على حالكم، وجهتكم التي أنتم عليها، ﴿إِنَّا عَمِلُونَ وَأَنْظِرُوا﴾: بنا الدوائر، ﴿إِنَّا مُنظِرُونَ﴾: أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٤)

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما، فلا تخفى عليه أعمالكم، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾: فلا بد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك، فينتقم لك منهم، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾؛ فإنه كافيك وكافلك، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وقرئ: «تعملون»، بالتاء، أي: أنت وهم على تغليب المخاطب.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ هُودٍ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بِشُوحٍ وَمَنْ كَذَّبَ بِهِ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ، وَشُعَيْبٍ، وَلُوطٍ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَكَانَ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ مِنَ السُّعْدَاءِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ» (٧٧٤).

٧٧٤ - تقدم برقم (٣٤٦).

قال الحافظ: تقدم إسناده في آل عمران، ويأتي في آخر الكتاب. انتهى.